زمن الجنــون

روايــة

دكتور نبيل راغب

النــاشر

مكتبة غريب

٢٥١ شارع كامل صدقي (الفجالة)

تليفون ٩٠٢٥٠٧

- ١ -

كانت الأيام الأخيرة من شهر يوليو مشبعة بالرطوبة الخانقة والهواء الراكد القابع على الوجوه والرقاب برذاذ المـاء المالح ٠ وظل صيف ذلك العام على هذه الوتيرة من القيظ المبهـر بالشمس الحـارقة والبحر الـذى أوشكت أمواجـه ودواماته على ما يشبه السكون الـذى لا يحمل فى طيـاته سوى حفيف الفراغ السـارى بزرقته الخضراء بين السماء والبحر حتى لقائهما عند خط الأفق ٠ وأوشك المصـطافون على فقـــدان الأمل فى اجازة تنسيهم سياط القاهرة على ظهورهم وقبضاتها الحديدية الساخنة على أنفاسهم ٠

لكن سرعان مـا استجابت الاسكندرية اللعـوب ، وكأنهـا لست ما يجيش بصدورهم ، فلم تخيب أملهم عنـدما توارت شمس ذلك الصباح خلف سحب رمادية كثيفة ، وهبت رياح أحالت سطح البحر الى قمم لتلال وجبال متحركة فى ايقاع رتيب لكنه صاخب ، ولطمت ذرى الزبد الأبيض لسان المنتزه الممتد الى داخل البحر ، بل وتجرأت وتطاولت حتى بلغت سور الجسر الملكى الذى بنى مع القصر ٠ ومع ذلك ظلت البحيرة المحـاصرة بفنـدق فلسـطين من جانب ، والكبائن والشاطىء الرملى من ناحية أخرى ، هادئة رزينة لم تعتورها سـوى بعض موجـات متراقصة داعبت السـابحين والسابحات وهزت القوارب والمراكب الصغيرة التى استكانت لها ٠

كان يوليو يطوى صفحته ليسلمها لأغسطس عنـــدما جلست حكمت الى أختها الكبيرة عفاف تحت مظلة لم يعد لها دور بعــد أن توارت الشمس ، وأوشكت الرياح أن تقتلعها من العمق الذى بلغته فى باطن الرمال المترامية بين أعتاب الكبائن ومياه البحيرة التى مال لونها الى الرمادى الداكن بعض الشىء · ومع ذلك واصلت عفـاف انكبابها على القطعة الصوفية التى كانت تشغلهـا بالابرة فى حين وضعت حكمت الكتـاب الذى كانت تطـالعه فى نهم فى حجـرها وخلعت نظارتها السلكية الرقيقة وقالت لأختها مداعبـة اياها فى حنان دافق :

ـ لا تستطيعين أن تضيعى لحظة واحـدة دون انهمـاك فى شىء ما ؟!

رفعت عفاف رأسها الذى كساه الشيب برغم انهـا لم تتعـد الخمسين فبدت ملامح وجههـا التى تقترب كثيرا من ملامح أختهـا فى دقتها ورقتها وسماحتها ، وقالت باسمة :

ـ علمتنى الحياة أن اللحظات غير المفيدة لا تحسب فى عمر الانسان !

مدت حكمت ساقيهـا فى الرمال وضمت حولهمـــا أطراف ردائها البنى ثم نظرت الى ساعة يدها فى بعض القلق :

ـ تأخر وائل ومعالى ·· قالا أنهما سيأتيان بمجرد اتصالهما بالقاهرة ومعرفة النتيجة ! هل يمكن أن يكون وائل قد رسب ؟

ألقت عفاف بالابرة والقطعة الصوفية جانبا وهى تدلك عينيها:

ـ لا أرى داعيا للقلق ·· لم يحدث أن رسب وائل من قبل ·· كذلك فالاتصال تليفونيا بالقاهرة ليس بالسهولة التى تتصورينها ·· ومن المحتمل أن لا يجـدا زميلهما بالبيت ·· فهـو ليس تحت أمرهما !

ـ لقد وعدهما بابلاغهما النتيجة ·· وليس أقل أن يتـرك لهما رسالة اذا لم يكن بالبيت عند اجراء المكالمة !

ـ سيعودان الآن ومعهما النجاح والتفوق كالعادة !

ـ أروع ما فيك يا عفاف أنك لم تفقدى روح الطمأنينة والتفاؤل برغم كل ما مر بك !

ـ كان العمل الدائم والمثمر خير علاج للفراغ الذى اجتاحنى عند وفاة زوجى والذى كان من الممكن أن يقتلعنى تماما من جذورى ويضعنى فى مهب الرياح !

ـ وهو ما تعلمته منك ·· وكان خلف اصرارى على عمـلى بالمدرسة برغم محاولات ابراهيم المتكررة كى أستريح بالبيت بعـد أن أنعم الله عليه بخيرات لم يكن يحلم بها !

ـ العمل قيمة فى حد ذاته ·· ولا معنى للحياة بدونه حتى لو امتلك الانسان كنوز الأرض كلها ! والحمد لله فقـد تشرب أبنـائى بنفس المبادىء ·· كان يوسف أصغر زملاء دفعته فى كلية الطب ·· وها هى ميرفت على وشك الحصول على ماجستير الهندسة من المانيا ·

قاطعتها حكمت بحماس متدفق بالمشاعر الودية الساخنة :

– حفظ الله معالى أيضا ٠٠ فهى الدافع وراء تفوق رائل الذى فى حاجة دائمة الى من يحفزه الى الاجتهاد !

– هانت ٠٠ لم يتبق سوى سنتين على تخرجهما باذن الله ! وان كنت آخذ عليك التدليل الزائد على الحد لوائل الذى تلبين كل طلباته فورا ومهما كانت سخيفة أو غير معقولة !

– تعرفين جيدا أننى متفقة معك تماما فى هذا ! لكن ما العمل وأبوه يصر دائما على أن يكون رهن اشـارته فى الفترات القليلة التى يتواجد فيها فى مصر ٠٠ حتى يجنب وحيده الحرمان الـذى عانى منه فى صـباه وشبابه المبكر ٠٠ وكم تجادلت معه فى هـذا الشأن !! لكنه لم يعرنى أذنا صاغية !

بدت مـلامح الحزم على شفتى عفـاف الدقيقتين وهى تضم فستانها حول ساقيها تجنبا لبرودة الهواء المتطاير بالرطوبة :

– كان الحرمان المدرسة التى تعلم فيها ابراهيم ٠٠ والسبب فى اصرارك على الزواج منه برغم معارضة بابا ٠٠ فقد تأكدت أن عصاميته بعيدا عن الوظيفة الحكومية كفيلة بأن تحقق له كل أمانيه ان عاجلا أو آجلا !

– ولا تنسى أيضـا حبه الجـارف لى وكلامه المعسول الذى فرش لى طريق المستقبل بالورود والرياحين برغم عدم حصولى على مؤهل جامعى !

قالتها حكمت وقد شردت ببصرها عبر الجسر الملكى الصامد للطمـات الأمواج وقممهـا المتوجة بالزبد ٠ انداح الشرود ليفسح طريقا لابتسامة حانية مفعمة بالذكريات ، فى حين عقبت عفاف :

ـ ربما كان عدم حصوله على مؤهل جامعى سببا فى انطلاقه واجتهاده دون عقد أو حساسيات ؟!

ـ لا أنكر أن ابراهيم كافح كفاح الأبطال ٠٠ وكم من ضربات وخسائر هبطت عليه من حيث لا يدرى ؟! لكنه لم يستسلم ولم ينحن ٠٠ بل ازداد صلابة واصرارا وخبرة بخفايا السوق ودهاليزها ٠٠ وواصل العمل بقدر الامكان فى ظل الانغلاق الاقتصادى واستطاع أن يؤمن لنا حياة طيبة هادئة مطمئنة ٠٠ لكن طموحاته كانت أكبر من هذه القيود بكثير ٠٠ ومع بداية عصر الانفتاح انطلق بكل قواه ليجمع ثروة مذهلة فيما يشبه لمح البصر ٠٠ وفيما لا يزيد على سنتين أصبحت له مجموعة كاملة من الشركات التى تتعامل فى الاستيراد والتصدير وتقسيم الأراضى والمقاولات والسياحة !

ـ أروع ما فيك يا حكمت أنك لم تفقدى رزانتك عندما أصبح ابراهيم مليونيرا !

ـ لم أتعلم هذه الأصالة سوى منك ٠٠ يكفينى اصرارك على رفض أية مساعدة طالما أن الله منحك القوة والصحة على مواصلة الكفاح ٠٠ ولا أخفى عليك أن اعتزال العمل بالمدرسة راودنى بعض الوقت نتيجة لالحاح ابراهيم ٠٠ لكنك كنت خير مثل أعلى لى ٠٠ ولولا سيرى على نهجك لكنت الآن حبيسة جدران البيت أو النادى بعيدا عن ابراهيم المسافر معظم الوقت !

ـ يكفينى أنا أيضا أننا نتقابل يوميا فى المدرسة ٠٠ فالعمل مع الأطفال ورعايتهم متعة لا تعادلها متعة فى الوجود ٠٠ برغم شقاوتهم وتخابثهم وخيالهم الواسع فى بعض الأحيان ٠٠ ففى وسطهم أشعر دائما بالحياة المتجددة والمستقبل المشرق !

تابعت حكمت المداعبـات الجـــارية بين بعض الســابحين والسابحات فى البحيرة التى فقدت وقارهـا وقالت بنبرات كأنهـا أصداء الماضى :

ـ كم تمنيت أن يعيش بابا ليشهد بنفسه صدق حدسى !! فقد كان أمله منعدما فى أن تنصلح أحوال ابراهيم ٠٠ ولم يطمئن له حتى آخر لحظة !!

ـ وأنا الآن أتمنى أن يسير وائل على نهج أبيه فى الأصالة والاصرار !!

ـ لا أعرف لماذا ينتابنى من حين لآخر نفس القلق الذى انتاب بابا تجاه ابراهيم كلما شعرت أنه مضطر فقط لمجاراة معالى فى الاجتهاد والتفوق حتى لا نقول ان البنت تفوقت عليه !

ـ الحمد لله الذى أوجـد لوائل البنت التى تدفعه دفعـا الى التفوق !

نظرت حكمت الى ساعتهـا فى قلق متزايد فى حين افترشت عينى عفاف العسليتين الضيقتين ابتسامة حانية وهى تشير تجاه درجات السلم الحجرى الهابط الى الشريط الرملى قائلة :

ـ لا تنظرى الى الســاعة ٠٠ فقـد وصلا بالسلامة والبشر ينضح من عيونهما !

استدارت حكمت بسرعة محـدثة بساقيها خطوطا غائرة فى الرمال لترى ابنها ممسكا بيد معالى وهما يقبـلان بسرعة لاهثـة تقاوم أقدامهما نعومة الرمال حتى بلغـا المظلة المائلة مع الريح ، وليهبط كل منهما راكعـا بالأحضان والقبلات الحارة ٠ وكلمـات معالى اللاهثة المتقطعة تقول :

ـ نجح وائل بتقدير جيد وأصبح طالبا بالسنة الثالثة بتجارة القاهرة !

فـرد وائل ضـاحكا فى صخب كالأمواج التى تلطم الجسر الملكى :

ـ ونجحت معالى بتقدير جيد جدا وكان ترتيبها الثانية على دفعتنا ٠٠ فلم يحصل على تقدير ممتاز سوى طالب واحد ٠٠ وهو ابن العميد بالمناسبة !

امتزجت كلمات حكمت وعفاف بالأنفاس المتقطعة والابتسامات المشرقة والنظرات الناضحة بالسعادة :

ـ ألف مبـروك يا أولاد !! ألف مبروك ٠٠ من جـد وجـد ٠٠ « عقبال » البكالوريوس ٠٠ هانت ٠٠ كلها سنتان وتتخرجان باذن الله !

بدا وائل وسيما جـذابا لا يحمل من ملامح أمه الكثير ، فى حين بدت معالى صورة شابة من أمها : نفس العينين الضيقتين العسليتين ، والشعر البنى الغـامق الذى فقـد كثيرا من لمعـانه ونعومته ، والشفتين الدقيقتين الرقيقتين ، والأنف الحاد ٠ كانت حركاتها تشبه ولدا شقيا ، وثقتها بنفسها وشخصيتها لم تترك لها مجالا للعناية بأنوثتها وابرازها ٠ جعلت شعرها قصيرا ، وتركت وجههـا دون ألوان ومساحيق ، وان كان جسـدها ممشوقا رشيقا فاتنا استطاع أن يجذب عينى وائل ليحاصره برغبة دفينة تمسحت ببنطلونها الأسود الضيق ٠

اما وائل فكان صورة جميلة لشاب جذاب : الشعر الأسود الفاحم اللامع الناعم ، والعينـان السوداوان بوميضهما النفـاذ ، والبشرة البيضاء المشربة بما يشبه الحمرة ، والأنف المشرئب الى أعلى ، والشـفتان الورديتان المائلتـان الى الغلظة ، والخضرة الباهتة مكان حلاقة الذقن والشارب ، والقوام السمهرى داخـل قميصه الأسود وبنطلونه الأبيض ، والحيوية المتدفقة الحائرة فى نظراته وحركات يديه ٠ قال لأمه وصدره لايزال يعلو ويهبط :

– وعدنى بابا برحلة الى أوروبا هـــذا الصيف اذا نجحت بتفوق !! ولم يحدث أن أخلف بابا وعدا له من قبل !!

نضح قلق دفين على وميض عينى معـالى فى حين أجابتـه حكمت :

– عنـدما يعود بالسـلامة من الخارج يمكن أن ترتب هـذا الموضوع معه !

– اننى نادرا ما أراه ٠٠ وقـد لا يعود الا بعـــد شهر أو شهرين ٠٠ فمواعيده ليست دقيقة على عكس وعوده !

– رجل الأعمال لا يستطيع أن يضع لنفسه جدولا محددا ٠٠ فلابد أن يطرأ جديد يدفعه الى تغييره دائما !

احتضن وائل أمه بمد ذراعه على كتفيها :

– اتفقنا ٠٠ سأجهز نفسى للرحلة من الآن !

تدخلت معالى فى محاولة لافتعال بعض الدلال الآسر :

– وهل يهون عليك هجرنا ؟!

– كلها شهران ٠٠ ستون يوما لا أكثر ولا أقل !

انداحت فرحة الأم بنجاح ابنها ليحل محلها توتر شد نظراتها اليـه :

ـ لقد سافرت الصيف الماضى ولم تستفد شيئا ·· انت بنفسك قلت انك لم تر سوى بعض الشباب المصرى وهم يغسلون الأطباق ويعملون خدما فى الفنادق والحانات ·· أما الشباب الأوروبى فلم تر منه سوى المتسكعين على الأرصـفة وفى الحـدائق يتعاطون الحبوب المخدرة ويشمون الكوكايين والهيروين ·· ومنهم من وجد ميتا فى العراء دون أن تتوصل الشرطة الى شخصيته الحقيقية ·· بصراحة يا وائل ·· انا لا أجد اية فائدة عملية تعود عليك من مثل هذه الرحلات !!

قبلها فى وجنتها قبلة سريعة واثقة :

ـ أعدك يا ماما أن أبحث هذه المرة عن الشباب المثقف الجاد لأصادقه ·· ويجب أن تثقى فى ابنك الذى لم يعد طفلا ·· والدليل على ذلك أننى لم أقلد المجانين الذين رأيتهم فى أوروبا ·· فى حين عاد بعض أصدقائنا فى النـادى معى الى مصر ليتعاطوا هـذه السموم !

احتارت حكمت فى بحثها عن كلمـات مقنعة للحظـات لكن عفاف أسعفتها :

ـ من جاور الحداد يا وائل لابد أن يكتوى بناره !! وبلـدنا فى أشد الحاجة الى جهود شبابنا وخاصة فى أوقات فراغهم !

كانت معالى على وشك أن تدعم كلمات أمها لكن وائلا انبرى للرد :

– لا يعقل أن يسافر معظم بنات النادى الى أوروبا ٠٠ فى حين أظل أنا الرجل أتصبب عرقا فى حر القاهرة !

لم تصمت عفاف عندما رأت نظرات أختها المشجعة :

– لم يحدث أن طالبنى يوسف بالسفر الى الخارج ٠٠ كان يقضى معظم وقت فراغه فى رياضة الكاراتيه التى يعشقها ٠٠ أو فى الاطلاع على آخر الأبحاث فى مجال الأمراض النفسية والعصبية ٠٠ وها هو الآن طبيب ناجح بشـهادة كل من عمل معهم من كبـار الأطبـاء دون أن يرى أوروبا ولو مرة واحدة فى حيـاته ٠٠ ولم تسافر مرفت الى ألمانيا الا فى بعثة للحصول على درجة الماجستير فى الهندسة ٠٠ أما معالى ٠٠ فهى كما ترى ٠٠ لا تحب أن تفارق أمها بهذه البساطة !

كان وائل على وشك أن يواجهها بالسبب الحقيقى لعدم سفر أبنائها الى الخارج وهو ضيق ذات اليد لكن معالى كانت أسبق منه حتى لا يتورط فى التصريح برأيه الذى تعرفه تماما فقالت :

– أدام الله على نعمة القراءة ٠٠ انها تطوف بى العالم كله فى سياحة ممتعة وأنا فى مكانى دون أن أتكلف أية مصاريف !

أطلقت معالى ضحكة عالية أكثر من اللازم فى محاولة لتحويل مجرى الحوار الى اتجاه آخر التقطته حكمت بسرعة :

– فلنفكر أولا كيف نحتفـل بنجاحكما ؟! ثم نناقش هـذا الموضوع غدا أو بعد غد ٠٠ والآن هيا الى السباحة ٠٠ فلن تجلسوا معنا كالعجائز !

فى الحال انطلقت معالى كالصاروخ الى الكابينة برغم الرمال الناعمة الغائصة تحت قدميها ، فى حين نظر وائل فى حيرة تجاهها ثم سرعان ما انطلق فى أعقـابها ، وأمه تقول لأختهـا فى أرتياح واضح :

ـ العجيب والرائع فى الوقت نفسـه أنه لا يشاركهـا هواية القراءة او حب السـباحة ومع ذلك ينقـاد اليها انقيادا أتمنى أن يستمر حتى زواجهما باذن الله !

تابعته عفاف بعينين حائرتين حتى اختفى داخل الكابينة التى سبقته اليها معالى قائلة :

ـ جعلهما الله من أبناء السعادة !!

وفى داخل الكابينة أسرع وائل لاحتضـان معالى لعله يفوز منها بقبلة من تلك القبلات النادرة التى تجود بهـا عليه من حين لآخر ! جذبها الى صدره فى عنف مركزا شفتيه تجاه شفتيها لكنها سرعان ما أدارت وجهها فانطبقت شفتاه على خدها فقال فى ضيق لم يخفه :

ـ حتى فى يوم نجاحنا ؟!

اجابت دون أن تنظر الى وميض عينيه الخاطف :

ـ اخاف ان تنالنى بسهولة فتسامنى بسهولة اكثر !

ـ الم نتعاهد على الزواج ؟! نحن فى حكم المتزوجين تماما !

ـ حبك لى اهم من زواجك منى ! أريد ان أحافظ عليـه الى الأبد !

– الحب لا يعرف الحرمان !

– وأنا لم أحرمك كما أننى لن أشبعك ·· فالتخمة تخنقه مثل الجوع تماما !

– والى متى سنظل على هذه الحال ؟!

– حتى نتزوج !

– اعترفى بأنك لا تثقين بى !

– أنت تعرف مكانتك عندى فى حياتى ·· ولا تحاول اللف والدوران !

حاول أن يضمها فجأة مرة أخرى الى صدره ليحتويها لكنها انسلخت منه فى نعومة باسمة أغاظته وهى تنطلق الى الحمام الذى أغلقته خلفها لتخلع ملابسها وترتدى لباس البحر · حاول أن ينظر من ثقب الباب لكن المنشفة المعلقة خلفه طمست ضوءه تماما · ظل يذرع القاعة المربعة الصغيرة جيئة وذهابا حتى كاد أن يدق الباب طالبا منها فتحه لكنه تراجع فى اللحظة الأخيرة عندما فتحته وقد بدت ممشوقة فارعة فى لباس البحر الأبيض الذى تناقض مع سمرتها الدافئة ، فى حين اختفى شعرها تحت غطاء من المطاط المزركش · أما وائل فقد ركز عينيه على ساقيها اللتين أغرم بهما منذ أن شعر بجريان الغريزة الساخنة فى عروقه المنتفضة · حاول الهجوم والغزو مرة ثالثة لكنها أفلتت منه ضاحكة عند الباب الخارجى :

– اذا كنت تريد احتضانى فعلا فهيا الى البحر لتحملنى بين ذراعيك !

كاد الغيظ أن يقتله :

ـ تعرفين جيدا اننى لا اجيد السباحة !!

ـ ولماذا لا تحاول اجادتها ؟! على الأقل ستحصل على مهارة جديدة حتى لا تقتصر مهارتك على القبل والأحضان !

كان على وشك أن يصارحها بأن أية فتاة تتمناه !! بل وأجمل منها بمراحل لكنها كانت قد انطلقت الى البحيرة المتماوجة لتلقى بجسدها فيها مثل سمكة ذات قد مياس غطست للحظات غير قصيرة ثم برزت برأسها وهى تنفض قطرات الماء وتركز عينيها على باب الكابينة حتى خرج منه وائل بلباس أحمر فاخر · هرول اليها حتى بلغتَ المياه كتفيه فتوقف عن التوغل ، فهو لا يستطيع أن يتصور قدميه دون أرض تحتهما · نظرت اليه فى خبث ودلال وعادت اليه محاولة جذبه الى الداخل لكنه أصر على وقفته :

ـ لن تتعلم العوم طالما أنت واقف على الأرض !

ـ ومن قال لك أننى أريد أن أتعلم العوم ؟!

شعرت ببوادر ضيقه وسأمه فدارت حوله ضاحكة مداعبة ، وسرعان ما استجاب لهـا محاولا الامساك بهـا من أى جزء من جسدها أو ملامسته بقدر الامكان لكن المياه اللعينة اقتحمت فمه وحلقـه وأذنيه عدة مرات حتى كاد أن يختنق بهـا فى حين علت ضحكات معالى التى تعاملت مع المياه كما لو كانت قد ولدت فيها · فقد انزلقت من بين يديه كلمـا حاول الامساك بهـا أو لمسها ، ثم توغلت الى أعماق البحيرة صائحة :

– سأعوم حتى الجسر !

كان على وشك أن يلعن اليوم الذى عرفها فيه ، لكنه فضل العودة الى الشاطىء · وبمجرد أن استدار فوجىء بالدكتور يوسف قادما صوب مظلة أمه وخالته فأسرع خارجا من البحر ومستمتعا بالدفء السارى من الشمس التى أفسحت لنفسها أخيرا مكانا بين السحب الآخذة فى الانقشاع والمتوارية بعيدا · فكم كره لسعة البرد عند نزوله الى المياه ؟! انها تصيبه بقشعريرة مثل المس الكهربى ! وبمجرد بلوغه الشاطىء سمع ضحكات معالى فى أعقابه ثم سبقته جريا الى المظلة فى فرحة طاغية بلقاء أخيها الذى جاء دون ميعاد ! وبعد القبلات البهيجة المبتهجة بالتئام شمل العائلة والتساؤلات عن سر مجيئه المفاجىء قال يوسف وهو يرتكز بركبته اليمنى فى الرمال الناعمة :

– قررت مع زميل لى بالمستشفى أن نتبادل النوبات الليلية على أساس أن أرابط النصف الأول كله من الأسبوع بالمستشفى ثم يرابط هو النصف الثانى بدلا من الليالى المتفرقة التى لاتمكننا من التحرك بعيدا ·· وبذلك يستطيع كل منا الحصول على يومين اجازة أسبوعيا برغم ضغط العمل الذى لم نتوقع حجمه وكثافته بهذا الشكل فى السنتين الأخيرتين !

تحولت نظرات الفخر فى عينى عفاف بابنها الى ابتسامة ضاحكة :

– عندما عين يوسف بالمستشفى كان يشكو الملل الذى هرب منه الى الكاراتيه والسباحة ·· أما الآن فلا يكاد يجد وقتا للنوم !

ربت يوسف على ظهر أمه فى حنان دافق :

ـ كانت كل مهمتنا رعاية الحالات المزمنة والميئوس من شفائها فيما لا يزيد على ربع أو ثلث غرف المستشفى ٠٠ ثم نسـترخى فى شمس حلوان وهدوئها فى الشتاء ٠٠ وتحت ظلال أشجار الحديقة فى الصيف ٠٠ وكثيرا ما نام بعضنا بالفعل ٠٠ بل وحلم أيضا ٠٠ فمصر عموما من البلاد التى عرف عنهـا قلة المصابين بالأمراض النفسية والعصبية المستعصية نظرا لروح العـائلة والألفة والمودة التى تعوض الناس عن كثير من مظاهر الرفاهية المـادية ٠٠ لكن هذه الروح لم تصمد فى وجه الموجة العـارمة التى دفعت بشباب كثيرين الى ادمان الأقراص المخدرة والكوكايين والهيروين ممـا جلب على مصر من الحالات المرضية الكئيبة ما لا يمكن أن نقبله كله بالمستشفى ٠٠ لدرجة أننا أصبحنا الآن نسجل أسماء مرضى كثيرين فى كشوف انتظار لحين خلو أسرة !

رفعت حكمت عينيها الى السماء الصافية المشرقة :

ـ فلينجنا الله من المهالك !

التفت يوسف الى وائل الذى سرت فى جلده قشعريرة مشبعة بالرطوبة ، وغلف الملل وجهه بغـلالة رقيقة ، ثم الى معـالى التى مازالت قطرات الماء المالح معلقة بذراعيها وساقيها :

ـ كما جئت لكما بمفاجأة سعيدة علمت بها مساء أمس فقررت ان أحملها لكما فى جعبتى !

قطع وائل استرساله فى التشويق بأسلوب لم يخف بروده :

ـ علمنا بها صباح اليوم تليفونيا !

علق يوسف فى اقتضاب :

– ألف مبروك ·· ومع تمنياتى بدوام التوفيق والتفوق !

ثم ربت بكلتا يديه على صدره الذى انتفخ شهيقا لاستقبال هواء البحر فبدا تناسق عضلات ذراعيه وجسمه الفتى رهو يتغزل فى الأمواج التى تلطم الجسر :

– كمـا أوحشنى البحـر ؟! أوشك بصرى أن يضعف نتيجة للغرف البيضـاء المغلقة ! سأذهب لأغيـر ملابسى وألقى بنفسى بين أحضانه !

انطلق صوب الكابينة فبدا جسمه الفـارع المتناسق كبطـل رياضى ، فى حين قالت معالى لوائل :

– فرصة ذهبية لتتعلم السباحة على يدى أستاذ قدير !

– قلت لك ألف مرة اننى لا أحب أن أتعلم شيئا بالاكراه !

تجاهلت معالى رده الطفولى الجاف بابتسامة حرجة وادعة :

– اننى لا أجبرك على شىء ! فأنا أحب أن تكون فى صحبتنا دائما !

– ولماذا لا تكونين أنت فى صحبتى ؟!

– وما الفرق ؟!

– الفرق كبير ·· فالمرأة هى التى تتبع الرجل وليس العكس !

– اننى على استعداد أن أتبعك حتى آخر الدنيا ·· بشرط أن يكون لدينا هدف نسعى اليه لتحقيقه !

ساد صمت ثقيل مشبع برطوبة الجو وملوحة البحر ودفقات الريح التى أوشكت على اقتلاع المظلة لولا أن معـالى امسكت بهـا وأعادت غرسها · تشاغلت حكمت بتصفح الكتاب الذى كان قابعا فى حجرها فى حين عادت عفاف الى شغل الابرة الشاغل لاصابعها الدقيقة الصلبة ·

انطلق يوسف خارجا من الكابينة فى لباس بحر اسود أبرز جسمه البرونزى بعضلاته البارزة المنحوتة من صخر نحاسى ، ومر بالمظلة فى خطوات تقفز بالرشاقة والمرح والصياح :

ـ هيا ·· البحر امامنا والملل وراءنا !

والقى بنفسه كمارد اغريقى بين الأمواج · ترددت معـالى قليلا لكنها لم تستطع أن تقاوم نداء البحر فأسرعت فى أعقاب اخيها بعد أن اشاح وائل بوجهه بعيدا تجاه الكبائن · وفى لحظات كانت الأذرع والسيقان تضرب المياه الزرقاء الصافية فى قوة ورشاقة بين ضحكات ودعابات السابحين والسابحات فى الطريق الى الجسر !

شعر وائل بوطأة نظرات امه التى اختلستها برغم الصفحات المفتوحة أمام عينيها · انطلق بدوره صوب الكابينة التى ابتلعته · غمرته الخلوة بارتياح افتقده كثيرا فى وجود معالى ، وتضاعف فى الحمام عندما ترك جسده عاريا تحت رذاذ الدش الساخن يطارد لسعة الماء المالح البارد · ارتخت أعصـابه وانطلق بخيـاله الى صديقات النادى فى القاهرة التى بدت ساحرة برغم مقته لحرهـا فى الصيف ! لم يحاول أن يعلل لنفسه السبب فى خياله الذى حام حول الوجوه الجميلة والأجساد المتفجرة فى النادى · كم اقتربت منه لكنه كان مشغولا دائما بمعالى ؟!!

جفف جسده وارتدى قميصا وسروالا من الحرير الأبيض ثم ألقى بنفسه على أريكة وثيرة بطول القاعة الصغيرة . تمدد محتضنا وسادة حريرية حمراء وأغمض عينيه ليستعرض موكب الجمـــال والفتنة أمام مخيلته التى طالما طمستها معالى بضخامتها وسطوتها !
تضاءل هدير البحر فى الخارج حتى تلاشى تماما وهو يتذكر شيرين بعينيها الخضراوين ، وجدائلهـــا الذهبية ، وبشرتهـا الطـافحة بالحمرة ، وابتسامتها المرحبة بنظراته اليهـا ، ونجوى بوجههـا الملائكى وخجلها الباسم كلما خاطبها ، ومنال السمراء الدافئة ذات الشعر الطويل الأسود الفاحم النـاعم اللامع ، والصدر المشرئب الى الأمام كفوهتى بركان موشك على الانفجار ، والذراع الطويلة التى لم يسلم منها صدره أو كتفه كلما داعبته ، وزيزى التى طالمـا استعرضت جسدها المتدفق بنداء الحيوية فى البكينى الأحمر على حافة حمام السباحة !

كلمـا مرت فاتنـة أمام مخيلته خلف عينيـه المغمضتين ، اعتصرت ذراعاه الوسادة الحريرية الحمراء حتى جاءت فى نهاية موكب الجمال والفتنة هنـاء أو نانا لتتربع على عرش قلبـه ! كم تجاهل نداء نظراتها الصامتة ؟ ليست مثل الأخريات ! غامضة ، مثيرة ، متعالية لم تقبل دعوته الى مشروب الا بعد الحاح منه ومن معالى ! يتمنى الجميع صداقتها لكنهم لا يحلمون بشرف حبها ، ومع ذلك كانت تخاطبه من حين لآخر بنظرات مشحونة فى غياب معالى التى كانت واثقة من نفسها جدا لدرجة أنها كانت تسلك وكأنه ملكها الذى لن ينازعها فيه أحد !! من منحها هذا الحق ؟! لا يعرف ! كل ما يعرفه أنه آن الأوان فى هـذه اللحظة ليتخلص من ربقـة هـذه العبودية المستترة ، وسيثبت لمعالى ولأمه بالدليل العملى أنه اذا أراد فعل دون أن يقيم وزنا لرأى الآخرين أو نصحهم أو ارشادهم ،

وأنه لن يصد أية فتاة تحاول التقرب منه من أجل عينى معـالى التى تتمنع عليه دائما حتى كاد أن يتسول منها قبلة أو حضنا وهى لا تجـرؤ فى الوقت نفسه أن تقترب من موكب الجمـال المحيط به والمتقرب منه !

آن الأوان كى يعرف كـل طرف حدوده وحجمه ومقـداره ! وها هى تتهادى أمـام مخيلتـه بعينيها الرماديتين الواسـعتين الحزينتين ، وجدائلها الفضية اللامعـــة ، وشفتيها البـاهتتين البضتين ، ومشيتها المهتزة كأطياف الخريف الناعس ، وقوامهـا الرقيق السارى كالحلم المتجسد فى كرات نهديها وردفيها البضة · الآن فقط يتذكر بمنتهى الوضوح يوم أصرت معـالى على البقـاء بمكتبة الجامعة لنقل بعض فقرات من مرجع مهم فى مادة التكاليف ، فتركها الى النادى حيث التقى بهناء التى تجولت معه على ممرات النادى الحجرية وبين مروجه الخضر حتى بلغا خميلة فى منعطف بعيد عن العيون فجلسا تحتها · كان الربيع قد هب بأنفاسه الدافئة المعطرة بأريج الفل والياسمين ، وكسـا أبهاء النـــادى بحلة من الخضرة اليانعة التى تألقت من خلال الزهور الحمراء والصفراء والبيضاء · فى ذلك اليوم المبهر تأمل وجه هناء عن قرب ولمـــدة طويلة · كان جمالها متفجرا مضيئا شفافا برغم بعض الهـــالات السوداء المحيطة بعينيها المائلتين الى ما يشبه الحمرة البـاهتة ، والعصبية التى تحاول أن تخفيها فى بعض حركاتها الرقيقة المنطلقة مع دخان سيجارتها المتدفق الشفاف ·

كانت هناء الوجه المناقض تماما لمعالى · شعر شعورا غامضا فى تلك الجلسة انهـا تريده وترغبـه ، فالأمر لم يكن قاصرا على الصداقة البريئة ، بل انها بدت وكأنها فى حاجة شديدة اليه : لم يدرك اى نوع من الحاجة لكنه استمتع بهـــذا الاحساس أيمـــا

استمتاع ! فلأول مرة يقابل من تحتاج اليه فى حين لم تشعره معالى والآخرون سوى بالحاجة اليها واليهم ! معـالى التى جعلته يشعر بانه غير مرغوب فيه من الجنس الآخر ، معالى التى لابد أن تبـدو قبيحة اذا ما قورنت بتلك المخلوقة الرائعة هناء ! ٠

فتح عينيه غارقا فى حلم يقظته فوجد مرآة صغيرة معلقة على الجدار المقابل ، قفز من استرخائه النـاعس ليقف أمامهـا ويتأمل عينيه السوداوين بوميضهما النفاذ ، وشعره الأسود الفاحم الناعم، وأنفه المشرئب الى أعلى ، وشفتيه الورديتين المائلتين الى الغلظة٠ سرى الفخر بين جوانحه وصورته تمتزج بصورة هنـاء فى المـرآة فابتسم لها من أعماقه ، وشـعر بقدرة خارقة على الفوز بأجمـل فاتنات النادى !

جلست أمامه على قطعة منخفضة من الحجر تحت الخميلة لتكشف بوعى أو بغير وعى عما يقرب من أعلىالفخذين دون محاولة للستر من عينيه اللتين تلصصتا أكثر من مرة حتى بلغتا اطـارا أحمر من الدقة والشفافية بينهما ما جعل حمرته تنتقل الى وجهه ، فى حين حاولت هناء ضم فخذيها فى محاولة فاشلة لم تستمر سوى لحظات عادا بعدها الى الانفراج وهى تحكى له عن تفاصيل حياتها الخاصة التى لم يعرف عنهـا سوى شذرات متنـاثرة من أفواه الآخرين : كانت تنتمى الى أسرة أرستقراطية لكنهـا تفككت بعـد طلاق والديها وزواج كل منهما من آخر لم يحتمل وجودها معهما ، فى حين حكم على أخيها الوحيد بالسجن بعـد أن صـدم بسيارته رجلا صدمة أودت بحياته ٠ جرفتها أمواج الوحدة والعزلةوالضياع برغم كل أصدقاء النادى المحيطين بهـا والذين يتمنـون الاقتراب منها ! فهم يرغبون فى جسدها وليس فى قلبها !

عـاد وائل الى استرخائه على الأريكة معتصرا الوســادة الحريرية مرة أخرى · انه يرى الآن بوضوح ما غمض عليه فى ذلك اليوم الذى انتهى بوصول معالى الى النادى وانسحاب هناء خفية من صحبته حتى لا تسبب له أى سوء تفاهم مع خطيبته التى تعزها كأختها تماما · يرى الآن غباءه وغفلته لدرجـة أنه لم يعـد الى التفكير ، مجرد التفكير ، فى هناء نتيجة لوطأة معالى التى ظلت تتحكم فيه لمجرد أنها ابنة خالته المفروضة عليه ، والتى لا تملك أية مؤهلات أخرى لفرض نفسها عليه ! يدرك الآن كم كان غبيا ومغفلا عندما أصر على تجنب هناء قبل سفره مع الأسرة الى الاسكندرية ؟! ان اخلاصه لمعالى لا يعنى سوى المزيد من الصد والتحفظ والرفض بحجة الانتظار حتى عقد الرباط المقدس ، لا يعنى سوى المزيد من الحاجة والتبعية والذل والعبودية ، وكأن الأرض خلت من النساء جميعا ولم يتبق سوى معالى !! بل ان الزواج من معـالى لم يعد الآن مطلبا فى حد ذاته ، فلابد أنه سيتحول الى مزيد من القيـود والقضبان ، فى حين يستمتع أصدقاء النادى بكل مباهج الحياة ! بل ان بعضهم بلغ حد تعـاطى الأقراص والحقن المخـدرة ، وشم الكوكايين والهيروين بحثا عن سعادة مزيفة !

اما هو فكان مثالا للاستقامة والاخلاص ، ومع ذلك داست معالى بحذائها ذى الكعب المعدنى على كل هذا ! لم تكن تسمح له بقبلة او بحضن أو ملامسة الا فى المناسبات التاريخية مثل النجاح أو أعياد الميلاد او المناسبات التى كان يخترعها ويتعلل بها لاهدائها بعض الهدايا الثمينة التى كانت تتقبلها بمنتهى البســاطة كأنهـا واجب مفروض عليه ، وذلك مقابل الحصول على قبلة عابرة أو لمسة غائرة ، فى حين أن هناء فى تلك الجلسة الهامسة الحالمة التى لم تعد غامضة الآن ، ألحت الى طمع بعض أصدقاء النادى فى ماله ،

بل واستمرءوا المشرب والمأكل على حسابه نتيجة لاسرافه وتبذيره ! ونصحته بصد من يطلبون منه سلفة وخاصة أن بعضهم لم يعبأ بردها وكأن ماله أصبح حلالا لهم ! وكان هذا صحيحا ، فالمال كثير والأصدقاء كثيرون أيضا ولم يشعره أبوه بالحاجة أبدا فان ما يحصل عليه من مصروف شهرى يزيد كثيرا على مرتب مسئول كبير فى الدولة ! ومع ذلك أسره خوفها على ماله وهى التى لم تكن تقبل دعوته مع معالى الى مشروب أو حلوى الا بعد الحاح شديد !

أخذت الغشاوة تتلاشى من على عينيه وانفتحت أمامه كوة تدفق منها نور ساطع غشى بصره . شدة الحنين الى القاهرة وحرها الذى لم يكن يحتمله . لو أن هناء فى القاهرة الآن لسافر اليها فورا ، لكنها سافرت كعادتها كل صيف الى لندن لقضاء شهر هناك ! انه لا يعرف مصادر دخلها الذى تنفق منه على مظهرها وسفرياتها ، لكن لابد أن أباها الثرى يمدها بما تطلبه ، فلا يعقل أن يترك ابنته الجميلة بلا مصدر مالى وخاصة أنها تعيش مع أمه أو جدتها العجوز فى شقة باحدى العمارات التى يمتلكها فى حى المنيل .

لا يعرف وائل اذا كانت نجحت أو رسبت ، لكن يبدو أنها لم تعد تهتم بشىء برغم دراستها السهلة فى كلية الآداب ! آه ! ما أمتع أن يمد لها يده ليشدها من بحر الضياع واللامبالاة !! ما أروع أن يفتح لها طريق الأمل والاصرار والعزيمة !! انه قادر على ذلك بل ومغرم به ! وفى الصيف كله متسع له كى يكتشف عالمها الغامض المثير ! ولابد أن أمه ستسعد بضياع حماسه للسفر الى أوروبا ، والذى طالما قتلها قلقا عليه ! لم تعد معالى تمثل فى حياته سوى الملل والرفض والفرض ، وقد آن الأوان كى تعرف حجمها الطبيعى . لن يغادر الاسكندرية قبل أسبوع ، سواء بمفرده أو معهم ، الا بعد

ان يؤدبها باللامبالاة والرفض والاهمال ، أى بنفس أسلحتها ٠ ثم يلقنها درس العمر فى القاهرة ! ان كل شىء فى حياتها له هدف مؤجل لا يعلم متى يتحقق ، لكن متعة اللحظة الراهنة لا وجود لها عندها ٠ انه لا يكرهها ولا يمـكن أن يكرهها ، لـكن لو جرفه حب هناء ، فسوف يترك له العنان حتى لو لم يصل معها الى أى بر ! لم يتعود أن تصد له رغبة من قبل ، ولو أغدقت عليـه هناء الجميـلة بالعطاء ، فلن يبخل عليها بشىء ! ولتهنأ معالى بالقراءة والسباحة فهو لا يقرأ سوى كتب المنهج الدراسى وفى أحيـان كثيرة بضـغط منها ، كما أنه لا يحتمل على جسده لسعة البرد والملح عندما تجبره على الانغماس فى مياه البحر فى لحظة تتوق فيهـا نفسه الى حر القاهرة !

زمجر البحر خارج الكابينـة وارتمت أمواجه على شـاطىء البحيرة التى فقدت هدوءها ، وارتطمت الرياح المشبعة بالرطوبة المالحة بالباب والنـافذة ، فاعتصر وائل الوسـادة الحريرية فى أحضانه مستمتعا باسترخائه على الأريكة وطيف هناء يتهادى حوله وينحنى عليه بجدائلها الفضـية اللامعة ، وعينيهـا الرماديتين الواسعتين الحزينتين ، وشـفتيها الباهتتين البضتين ، وقوامهـا الرقيق السارى كالحلم المتجسد فى كرات نهديها وردفيها البضة !٠ آه يا هنـاء ! كم كنت غبيا مغفـلا أعمى ؟! لكننى سأثبت لك أننى التقطت رسالتك ولتغفرى لى تأخرى فى الرد !

- ٢ -

انطلقت السيارة الحمراء الصغيرة كالسهم المارق فى شارع الهرم مع شروع شمس ذلك اليوم الحار الرطب من أغسطس فى الغروب · لم تطغ موسيقى المسجل الصادحة الصاخبة على أمواج النشوة والاثارة المتدفقة داخل وائل ، بل امتزجت بها وأوشكت أن تغمر المخلوقة المبهرة الساحرة القــابعة الى جواره فى قميصهـا الأحمــر الخفيف وسروالهــا الأبيض الضيق · كم كافح وائل فى الشهر الأخير كى يفوز بالخروج معها على انفراد ؟! ظلت تقاومه بمنتهى الاصرار والصمود ، وفى وجود معالى كانت تتجاهل وجوده وتصب كل اهتمامها عليها ، وهو سلوك لم تشتهر به هناء التى اعتادت الاهتمام من الآخرين !

كم رددت فى غيبة معالى أنها لا يمكن أن تطعن صديقتها فى ظهرها وتصادق خطيبها على حسابها ؟! وكم أكد وائل لها أنه ليس دمية تمتلكها معالى ، بل انه ليس خطيبها الا على سبيل الاشاعة والثرثرة ، وهو الذى يختــار صــديقاته وليس العكس ! وأن الأمر لا يحمل فى طياته شبهة خيانة أو طعنا فى الظهر ، بل هو اختيــار حر ولقاء بين القلوب التى تعرف معنى الحب ونشوته ، وطالمــا أن هناء تميل فعلا الى صــداقته فــلا مانع من خوض التجــربة والاستمتاع بها حتى الثمالة !

وفى مواجهة هذا الاصرار ، اصرت هناء بدورها على أن يتم لقاؤهما بعيدا عن عينى معالى حتى لا تجرح مشاعر صديقة عمرها التى لابد أنها ستحزن اذا نما الى علمها أنها اختطفته منها ، فى حين أن الأمر لا يمت الى الاختطاف بصلة طالما أنها رغبته الحرة ! وقد قدر وائل فى نفسه هذه الأخلاق الراقية التى تضع مشاعر الآخرين دائما فى الاعتبار ، ولعن فى سره تلك الصديقة التى اتهمت هناء فى غيبتها بالمجون وتكالبها على الاقتراض من الآخرين دون رد معظم ما اقترضته ، كما لعن الحقد الذى نهش قلبها ، فالمرأة لا تحتمل اعجاب الآخرين بمن هى أكثر وأروع جمالا منها ، فما بالك بتلك الصديقة التى لا تمت للجمال الأنثوى بصلة من قريب أو بعيد ؟! والغريب أن تعليق معالى على كلام تلك الصديقة لم يحمل فى طياته حماسا متدفقا لصدها وتكذيبها بل كانت كلماتها باردة باهتة لا تعبر عن رأى محدد حين قالت :

ـ الناس أسرار ٠٠ والله وحده يعلم الحقيقة كاملة !

لم يدرك فتور معالى فى كل شىء وليس فى مشاعرها فقط الا مؤخرا ٠ أما هذه المخلوقة الساحرة الشفافة الباهرة القابعة الى جواره فقد فتحت أمام عينيه بأناملها الرقيقة المرمرية عالما متدفقا بحرارة الحياة والحيوية ، لم يتخيل وجود مثله ولا فى أشد أحلام يقظته اغراقا فى الخيال ، وذلك من مجرد عدة لقاءات بينهما فى النادى فى الأسبوعين الأخيرين سواء فى وجود معالى أو فى غيبتها ، فهى لم تعد تعنيه فى كثير أو قليل بعد أن شحنت هناء نهاره بالابتسامات والكلمات واللمسات ، وليله بالأحلام والأطياف والشطحات !

أما معالى فقد حاولت أن تتقبل لقـاءاته وأحاديثه مع هنـاء على أنها أمر عادى بين أصدقاء النادى الواحد ، حتى لا تبـدو وقد اهتزت ثقتها التقليدية فى نفسهـا نتيجة للغيـرة التى كثيـرا ما قالت عنها انهـا احساس لا ينتاب سوى الجهـلاء أو الـذين لم يبلغوا درجة كافية من النضج الفكرى والعاطفى ! ومع ذلك لابـد أنها لاحظت عدم تكالبه على الانفراد بهاَ واختطاف قبلة أو استجداء لمسة منهـا منذ الأسبوع الأخير فى الاسكندرية ، كمـا لابد أنهـا لاحظت انصرافه تماما عن فكرة السفر الى أوروبا ! دون أن يخفى سعادته الغامرة بأنه لم يعد فى حاجة حقيقية اليها بعد أن هلت من ملأت حياته حتى الثمالة ، برغم أنه لم يحدث بينهما ما وقع فعـلا بينه وبين معالى من قبلات ولمسات وان كانت نادرة !

كانت عجـلات السيارة الحمـراء تطوى الأرض وتسـابق الغروب حتى بدت الأهرامات شامخة كالخلود نفسه ، ومن خلفهـا بدا الوهج الأرجوانى فمنحها اطارا سرمديا · نظر وائل الى هناء مبتسما :

– أريد أن أسمع صوتك الجميل !

– تقود بسرعة مخيفة كأنك فى مهمة خطيرة !

– هذه هى طريقتى المعتادة فى القيادة ·· لكننى علىاستعداد أن أسير كالسلحفاة اذا كانت هذه هى رغبتك ؟!

– أنا أيضا أفضل السرعة حتى لا نتأخر أكثر من اللازم !

ضايقه تحفظها الذى ذكره بمعالى · فقد عول كثيرا على هذا اللقاء الذى كافح من أجله وأصر عليه ولا يعقل أن يعود منه بخفى حنين ، أى مجرد جلسة أخوية بريئة ! لقـد اختار هضـبة الهرم

بالذات لأنه بمجرد حلول المساء عليها تتحول العربات المتناثرة هنا وهناك الى شقق مفروشة منعزلة عن الكون كله · هكذا عرف من أصدقاء النادى ، وشرع فى الضغط على هناء التى استهجنت الفكرة فى أول الأمر ثم تساءلت مستفسرة فى دهشة واستنكار فأقنعها بأنه يريد الابتعاد تماما عن كل ما يمت للنادى بصلة ، وخاصة أنها حريصة على مشاعر معالى ، وكانت استجابتها أسرع مما توقع ! ومنذ تلك اللحظة وهو يخطط ليل نهار لما سوف يخوضه معها بعد أن أكد له قلبه أنها تحبه لكنها تتمنع بعض الشىء على سبيل خجل العذارى !

صعدت السيارة على الطريق وهناء فى شرود واضح لم يستشف منه وائل شيئا محددا : لعلها خائفة ؟! مترددة ؟! قلقة ؟! على كل حال ·· سرعان ما تتضح الأمور تماما فى تلك الخلوة النائية التى تتيح له الانفراد بها لأول مرة بعيدا عن الدنيا كلها · واصلت السيارة الانطلاق الملتوى على انحناءات الطريق الرصاصى حول الهرم الأكبر حتى قبعت خلفه فى منطقة هادئة تطل على أبى الهول ! صمت المسجل ومسح وائل الموقع بعينيه فلم يجد سوى بعض سيارات متناثرة لابد أنها لعشاق أيضا ، وبعض السياح العائدين سيرا أو على ظهور الجمال من جولتهم الأثرية ·

ران السكون الذى لم يقطعه سوى حفيف رياح جافة تخلصت من رطوبة أغسطس فى حين صبغت الشمس السماء بأشعتها الأرجوانية المتمسحة بالرمال المحيطة بالخلود · ابتسم وائل لهناء التى همست :

ـ حتى الآن لا أعرف سر اصرارك على خروجنا سويا بهذا الشكل !!

ومضت عيناه وهو يقبض على المقود بأصابع مشدودة :

– لأستمتع بحـديثك وصحبتك بعيدا عن ضجيج النـــادى وعيونه !

شردت بعينيها الرماديتين عبـر البساط الذهبى الممـــزوج بالشفق :

– لا أعرف ماذا سيكون شعور معـالى لو علمت بمـا نفعله الآن ؟!

لم يخف بوادر التوتر فى رعشة صوته وشدة أصابعه :

– من يســمعك يقل اننا نقـوم بسرقتها أو خيانتهـا !! نحن لا نرتكب اثما كما أنها ليست وصية على ٠٠ كل علاقتى بها أنهـــا ابنة خالتى !!

ارتخت ابسامة مطمئنة على وجه هناء وجذبت نفسا عميقـا من سيجارتها لترفع معه صدرها النـاهد البض ثم هبط مع كلمات وائل والدخان الشفاف من أنفها :

– لم أر أجمل من ابتسامتك !

– هل أبدو قبيحة وأنا حزينة ؟!

سعد بتوغل الحوار سريعـا فى منـاطق جمالهـا وسحرها وحزنها :

– تبدين ساحرة دائما ٠٠ لكننى لازلت عاجزا عن ادراك سر الحزن الدفين الذى يكاد يقفز من عينيك أحيانا !!

– لا أريد أن أشركك فى متـاعبى وآلامى ! فلـكل انســـان همومه !

صفق قلبه طربا واستدار ليواجهها فاذا بها تستدير لتسـند ظهرها الى الباب مثنية ركبتها على المقعد ، وكاشـفة عن رشاقة ساقيها فى السروال الأبيض الضيق الذى يكاد يشف عن اطـار اسود دقيق تحته ٠ احتضنها بعينيه :

ـ وأنا ما فائدتى فى هـذه الدنيـا اذا لم اشاركك متاعبك والامك ؟!

ـ هل ارتبطت بى الى هذا الحد وبهذه السرعة ؟!

ـ من يسترد وعيه وبصره ٠٠ يمكن أن يتغير بين طرفة عين وانتباهتها !

ـ السر فى هذا الحزن أن جدتى توفيت فى المستشفى وأنا فى لندن !! لم يكن لى غيرها فى هذه الدنيا !! وأنا الآن أعيش بمفردى فى شقتى ٠٠ لو وقع لى مكروه لما أنقذنى أحد !

اجتاحته مشاعر المنقذ الـذى سيصد عنهـا عوادى الزمن ، واحاسيس الفارس الذى سينقذ معبودته حتى لو وقعت فى الجحيم نفسه :

ـ اذا لم يكن لك مكان فى بيت أبيك أو بيت أمك ؟! فمكـانك فى قلبى ! حيـاتى كلهـا فداك !! لن أتركك فى حـاجة الى جنس مخلوق !

امسك بأناملهـا المرمرية وانحنى فى تعبد ليلثمها ويبثهـا حرارة شفتيه الملتهبتين ٠ سرت الحمرة الباسمة فى وجنتيها وهى تجذب أناملهـا فى رقة ناعمـة فى حين ألقت بأنامل اليمنى عقب السيجارة من النافذة المفتوحة :

– لا أريد أن تتورط فى مواقف قد تندم عليها فى المستقبل !
– لا أريد أن أتورط فقط بل أتمنى أن أغرق تماما !
– يبدو أن اندفاعك ليس له حدود ؟!
– معك ٠٠ مستعد أن أذهب الى نهاية العالم !

تدفقت ينابيع نشوته عندما تربعت على وجدانه صورة الشقة الخالية الا منها ٠ استمرأ تساؤلاته لاشباع لهفته :

– لكننى لاحظت مسحة الحزن هذه على وجهك الجميل قبل وفاة جدتك ؟!

أسبلت رموشها الطويلة وكأنها لا تريد التصريح بما تقوله :
– وهل هناك ما يسعد الانسان فى هذه الدنيا ؟:

– هناك الأمل والنجاح فى تحقيقه ! لماذا لا تهتمين بدراستك لعلك تجدين نفسك فيها ؟! لا يعنى الرسوب سوى اليأس وفقدان الثقة فى النفس !

لم يدرك أنه يردد نفس كلمات معالى الا بعد الانتهاء من ترديدها ! لكنه لم يتضايق من تأثيرها المستمر عليه ! كانت مناسبة للمقام تماما برغم أنها لم تقنع هناء التى همست :

– وماذا بعد النجاح أو حتى التفوق ؟ لم يعد العمل هو الباب المؤدى الى الرفاهية ! لى ابن عم لم يكمل دراسته لكنه تاجر فى العملة وفى سنة واحدة أصبح مليونيرا ٠٠ أما أنا فلا أعرف فى العملة سوى انفاقها !! بحثت كثيرا عن هدف أعمل من أجله ٠٠ لكن الدنيا كلها فقدت مذاقها ٠٠ وأصبح الماضى بكل مآسيه أروع ألف مرة من المستقبل !! لا أرى سوى غابة مظلمة يلهث فيها الضعيف والطيب والقانع تحت رحمة القوى والخبيث والجشع ! غابة لا أرى لنفسى مكانا فيها !

ذهل وائل لشحنة الكآبة الهائلة المتفجرة من باطن هـذه المخلوقة الرقيقة كالنسمة العليلة !! لكن احساس الفارس المنقذ عاوده مرة أخرى وهو يمد يده من على حصانه الأشهب كى يجذبها من السنة الجحيم المستعر مرددا كلمات الدكتور يوسف دون أن يدرى :

ـ شطب نابليون كلمة مستحيل من قاموسه !! فغزا العالم كله ولم تكن سنه تزيد على أعمارنا الا بسنوات قليلة !

ـ لو جاء نابليون فى زماننا لضاع فى الزحام !

لم يعرف أن لها قدرة عنيدة على الرد بهذا الشكل ، ومع ذلك واصل :

ـ سأقف الى جانبك حتى تحققى كل آمالك !

ـ الحمد لله فقد أرحت واسترحت ·· فليست لى اية آمال فى اى شىء !

قرر أن يتسلح بكل ذكائه وخبثه حتى يسبر أعمق أغوارها :

ـ يبدو انك لم تعرفى الحب من قبل ؟! فالحب هو ينبوع الأمل فى حياة الانسان ·· وهذا هو ما أشعر به الآن !

تجاهلت جملته الأخيرة برغم ضغطه المتعمد على حروفها ومخارجها :

ـ لا يطلب الشاب من الفتاة الآن سوى جسدها !! لقد انتهى عصر قيس وليلى وروميو وجولييت الى غير رجعة ! فى الصيف الماضى مثلا رآنى مخرج سينمائى فى النادى وقرر أن يجعل منى نجمة لامعة ·· وفرحت لعثورى على مهنة ستدر على دخلا يناسب مصاريفى ·· لكننى اكتشفت قبل فوات الأوان أنه لا يريد سوى جسدى الذى كرهته لطمع الكل فيه !

لم يعرف أنهـــا متحفظة هى الأخـــرى بهذا الشـــكل ! ابتلع حشرجة اعترضت حلقه لكنها تحولت الى غصة فى قلبه :

– الحب لا يعنى ســـوى التضـــحية والاخـــلاص والوفاء بل والفداء ! وحب الجسد مجرد فرع ثانوى من كل هذا !!

وجد نفسه يردد كلمات معالى مرة أخرى فلعنها فى سره ، وقرر أن يصل مع هناء حتى نهـــاية المطاف ! ولتذهب الى الجحيم هى أيضا لو اكتشف أنها نسخة مكـــررة من معالى · مـــد ذراعه ليمسك بيدهـــا ويدلكها برقة ثم ينحنى عليها يقبلهـــا ويمسحهـــا بلسانه ! سعد للقشعريرة التى سرت فيها برغم انسحابها النـــاعم من تحت شفتيه · همست :

– أخاف يا وائل أن تكون مثل الآخرين ؟!

لهج لسانه بصوت مبحوح :

– سأثبت لك أننى نوع مختلف تماما !

– أرجو أن تكون عند وعدك !!

اكتشف أنها لم تصارحه حتى تلك اللحظة بنوعية عواطفهـــا تجاهه برغم أنه ألقى اليها بكل ما فى جعبته :

– لكنك لم تصارحينى حتى الآن بمشاعرك ناحيتى ؟! أو بمعنى أصح لماذا قبلت الخروج معى الى هذا المكان المنعزل الذى سرعان ما يغرق فى الظلام ؟!

كانت اجابتها حجرا فى فمه :

– بمجرد حلول الظلام سنعود أدراجنا !

لعن كل شيء فى صمت حانق ، وكانت هناء فى مقدمة هــذه الأشياء ! قرر أن يسبق الظلام وخاصة أن البقعة خلت تمــاما من الأحياء باستثناء تلك السيارات الغامضة المتناثرة التى لابد أن من بها لا يعانون ما يعانيه من مقاومة أو مراوغة ؟! لا يعرف ! أحاطت سمرة المغيب بالسيارة الحمراء الصغيرة ! أرهقه التفكير والتخطيط فترك نفسه على سجيتها حتى تفعــل به ما تشــاء كعادتهــا ! فجأة احاطها بذراعين من حديد وجذبها الى احضانه واطبق على شفتيها البضتين الباهتتين بشفتيه النهمتين ! قاومت أول الأمر بساعديها ومرفقيها لكنه لم يستسلم لمقاومتها ، فما خلق هذا المكان للثرثرة الفارغة والجدل العقيم ! وما رضيت بمرافقته اليه لحوار كان يمكن أن يجرى فى النادى وأمام كل الأصدقاء ! ظلت تقــاوم لاهثــة احيانا ،مزمجرة أحيانا اخــرى ، متلعثمة ثالثــة حتى هـــدأت انفاسها ، وتحولت زمجرتها الى آهات وتأوهات متقطعة لكنهـــا متواصلةيشنف بها آذانه الغائبةفى نشوة طراوةالنهدين الملتصقين بقفصه الصدرى ! حتى رائحة الدخان فى فمها كانت نشوة مسكرة!

تساقطت كل الحواجز المصطنعة وغير المصطنعة وهو يرشف شهد لعابها عندما استكانت له تماما • لكنها عادت الى مقاومته بضربات واهنة من قبضتيها الطريتين فى كتفيه وصــدره وهمسات لاهثة مبحوحة :

ـ ما هذا الذى تفعله ؟!! هل جننت ؟!! أخطأت فهمى ؟! أنا لست كما تظن !!!

طغت همساته السائلة على شفتيها :

ـ أنت أروع مخلوقة فى الوجود !! أعبدك !! أعبدك !

وجرت شفتاه على شفتيها وعينيها وأنفها وأذنيها وعنقهـــا وشعرها تخضب مواطن السحر والجمـــال بقطرات لعـــاب النشوة الجامحة ، وعبير عطرها يسرى من تحت أذنيها وعنقها فى أنفــه فيسكره بلا خمر . صدحت آهاتهـــا فسمع قلبه وجيبهـــا ، وتركت شفتاه عنقها لتتساقط على نهديها فى محاولة لازاحة الاطار الأحمر الدقيق حولهما ، لكنها انتفضت كمن لدغتها عقرب وقد ألقت برأسه الى الوراء :

– أنت لا تعرف حدودا !! هيا بنا من هنا ! والا صرخت !!

تراجعت النشوة المسكرة أمام دبيب الخوف الشائك وربت على كتفها فى رجاء ملح :

– سأنفذ كل ما تطلبين ! آسف اذا كنت قد جاوزت حدودى !! لكن عذرى فى جمالك الذى لا يقاوم !! أعدك من الآن فصـــاعدا أن أتحكم فى عواطفى حتى لا أجرح مشاعرك !

ران السكون الذى لم يقطعه سوى أنفاس صدره الصـــاعد الهابط فى حين ركزت هناء بصرها الشـــارد على ســــمرة المغيب المتراجع أمام زحف جحافل الظلمة . سرى حرج متصبب بالعرق مع أنفاس السكون الذى قطعه وائل دون تفكير :

– سأعود بك حالا .. لكن قبل ذلك أتمنى أن أسألك سؤالا وتجيبيننى عليه بمنتهى الصراحة !

نظر فى عينيها فاذ بخوفه وقلقه يلتقيان بابتسامة ظلت مختفية وراء عينيها وشفتيها مما شجعه على القاء سؤاله فى تردد واضح:

– ما مشاعرك بالضبط تجاهى ؟! هل هى حب أم صداقة أم زمالة أم ضد ونفور ؟!

عاد الصمت الرهيب ليطبق على أنفاسه المكتومة حتى خـرج صوتها هامسا دون أن تلتفت اليه وهى تخرج سيجارة لتشعلهـا وتنفث دخانها !

ـ من الصعب تحـديد مشاعرى تجـاهك !! فلم يمض على صداقتنا سوى أيام معدودة ·· وما سبقها من لقاءات كان مجـرد زمالة بحكم النادى الواحد !

صمت للحظات لكنه لم يصبر !

ـ اذن ·· فانا كنت واهما أو مغرورا عنـــدما تصورت انك تحبيننى ؟!

ـ الحب لا ينزل كالصاعقة على الانسان فى لحظات ·· وانما ينمو داخله كما ينمو الجنين فى رحم الأم !

ذهل للتعبير الذى ان دل على شىء فانه يدل على باع طويل فى دنيا العشق والعشاق :

ـ يبدو أنك مررت باكثر من تجربة من قبل ؟!

أدركت تخابثه الساذج فقالت بنبرات واضحة انحت الهمس جانبا :

ـ يبدو أن الحب نبات لا يستطيع أن ينمو فى هذه الصحراء القاحلة التى يسمونها المجتمع ·· ولكى يطمئن قلبك فانا لم أعرف الحب بعد ويبدو أننى لن أعرفه !

غردت بلابل قلبه الذى لمح الطريق أمامه مفروشا بالورود :

ـ ستعرفينه على يدى باذن الله !!

ـ لكن ما فعلته دل على انك لا تختلف عن الآخرين !!

ـ وهل كان هناك آخرون قبلى ؟!

– ليس من حقك هذا السؤال !! فقلبى ليس بالسهولة التى قد تتصورها أنت أو غيرك اذا فكرت فى الاستحواذ عليه !

– سأثبت لك أننى مختلف تماما عن الآخرين !

– أرجو !

تساقطت الكلمة كقطـرة مثلجة على جمرات قلبـه المتوهج باللهب الكامن فى احشائها فقال وهو يدير محرك السيارة التى سطعت أضواؤها الكاشفة فوق تماوجات الرمال الداكنة :

– تكفينى هذه الكلمة !

ثم امسك بأطراف انامله المرمرية التى تركتها له يقبلها فى وله وتعبد ، وطلائع ابتسامة ترتسم على وجهها لكنه لم يلمحها .

انطلقت السـيارة حول الهرم الكبير الـذى أخفى قمتـه فى السماء المظلمة حتى استوت عجلاتها مرة أخرى على طريق العودة الرمادى الداكن الهابط الى دنيـا مثيرة متقلبة هائجـــة ، اقتلعت جذوره تماما من عالم معالى الرتيب الممل !!

- ٣ -

ـ لا أعرف ماذا جرى لوائل يا ماما ؟! فى أول الأمر قلت لنفسى انه يحاول استفزازى حتى أتخلى عن تحفظى معه مقابل عودته للاهتمام بى !! حاولت التقرب منه اكثر من مرة لكنه بدا لى سرا مغلقا لأول مرة !! لم يعد مواظبا فى تردده على النادى وفى أثناء وجوده يحاول تجاهلى تماما كما لو كان يخفى شيئا لا يريد أن يكشفه لأحد ! قالت لى شيرين انها تظن مع بعض أصدقاء النادى أنه وقع فى غرام هناء ٠٠ فهى تختفى من النادى فى نفس فترات اختفائه ٠٠ لكننى لم أقتنع بهذا الظن !

قاطعتها الأم التى كانت على وشك الانتهاء من صنع شال من خيوط التريكو الكحلى وهى تلقى بالابرتين جانبا :

ـ ولماذا لم تقتنعى ؟! كل شىء فى هذا الزمن الغريب جائز !!

ـ أولا لأنه ليس بالنمط الذى تفضله هناء !! ثانيا ٠٠ فهى ليست من النوع الذى يخفى علاقاته ٠٠ بل كانت تفتخر فى العام الماضى بوقوع مخرج سينمائى شاب فى غرامها ٠٠ وأنه سيجعل منها نجمة لامعة !! ثالثا ٠٠٠٠

قاطعتها أمها للمرة الثانية وقد ومض الاهتمام المتسائل خلف نظارتها :

– وهل حقق لها املها ؟!

– أبدا ·· اختفى فجاة كما برز فجاة فى حياتها ولم تعد تذكره بخير او بشر بل كانت تتهرب من الأسئلة الى تثيرها عنه صديقاتها ·· فتاة مثلها بهذه الاثارة والغموض بل والدهاء فى بعض الأحيان لا يمكن أن تقتنع بفتى طيب مدلل بل وساذج مثل وائل ! وخاصة أن علاقاتها ·· اذا كانت لها اية علاقات ·· لم تنشأ مع أى شاب من شبان النادى الذين يتمنون جميعا الاقتراب منها نظرا لجمالها الذى لا ينكره احد !

تصاعد ضجيج الباعة أسفل النافذة · فقد كان البيت يقع فى أحد الشوارع الضيقة التى يستخدمها أهالى الجيزة سوقا للخضر والفاكهة والأسماك · وهو البيت الذى تزوجت فيه عفاف وأنجبت فيه يوسف ومرفت ومعالى ، وكافحت فيه بعد وفاة زوجها حتى بلغت بأسرتها الصغيرة شط الأمان · انه قطعة حية من كيانها ولذلك قاومت محاولات ابنها للانتقال منه الى شقة أرحب فى منطقة انظف بعد أن اعتادت كل شىء ، بل وأحبت رائحة بقايا الخضر والفاكهة الملقاة على الناصية فى نهاية اليوم ، ومنظر القطط الشرهة حول الموائد الرمادية التى تعرض عليها أنواع الأسماك المختلفة · رفعت صوتها كى تسمعها ابنتها القابعة امامها فى البنطلون الجينز الأزرق والقميص الأبيض البسيط :

– ليس من السهل على شاب مثل وائل أن يقاوم الغواية اذا كانت بهذا الشكل ؟!

– هذا اذا كانت الغواية تغواه اصلا !!

ـ لا تتركى ثقتك بنفسك تحملك الى حدود قد تفقدين عندها السيطرة على الأمور !خاصة وأن الأمر كله غامض عليك !

ـ لو كان وائل مصرا على تجنبى وتجـاهلى لأمر فى نفسه جعله يغير تفكيره وموقفه ناحيتى فأنا لا أستطيع أن أفرض نفسى عليه ٠٠ فهذه أمور يستحيل أن يسيرها طرف واحد !

ـ ليس الأمر بهذه البساطة التى تتصورينها ٠٠ سأفاتح أمه فى الموضوع ٠٠ وأرجو أن يكون مجرد وهم أو سوء فهم !!

ـ أفضل الانتظار يا ماما حتى تتكشف الأمور تماما ٠٠ فأنت أدرى بحساسية خالتى تجاهه ومدى قلقها عليه !

عادت الأم الى الانشغال بالابرتين لكنها لم تصمت :

ـ قلبى يحدثنى بهواجس غير مريحة منذ أن تراجع من تلقاء نفسه عن فكرة السفر الى أوروبا ٠٠ التى كان يلح عليها كالأطفال ٠٠ ولم أشأ أن أعـكر سعادة حكمت بهواجس لعلهـا لا تكون فى محلها ٠٠ وها أنت الآن على وشك تأكيدها !! هذه أمور لا تحتمـل التأجيل يا معـالى ٠٠ يكفى أنه لم يعـد يمر بك لاصـطحابك الى النادى !

ـ سأسأل طنط حكمت عن السر فى هذا ! لكننى لن أنقل اليها الثرثرة والشائعات التى تدور حوله فى النادى !

ـ من حق أية أم أن تعرف كل شىء عن ابنها ٠٠ خاصة اذا كان وحيدها ٠٠ واذا كانت هى ناظرة مدرسة ومربية فاضلة مثـل خالتك !

نظـرت معالى الى ساعتها الصغيرة فى معصمهـا بقـلق متسائل :

– تأخرت طنط ·· اخشى أن تصل الطائرة قبل وصولنا الى المطار !!

– لابد أن نفق الهرم مزدحم كالعادة ·· أما وائل فقد اخبر أمه أنه ذاهب الى المطار بمفرده بعد أن يمر بأحد أصدقائه المريض بأحد المستشفيات !!

– انه لا يستطيع أن يتخلف عن استقبال أبيه ·· فليس هناك من يدلله ويغدق عليه مثله ! أما حكاية صديقه المريض هذا ففيها قولان !!

كانت السيدة عفاف على وشك أن تعقب لولا بوق سيارة اخترق اذنها ، بوق تعرفه جيدا · ألقت بالابرتين جانبا فى حين اطلت معالى من النافذة لترى سيارة خالتها البيضاء مرابطة بعيدا عن سلال الخضر والفاكهة وصناديق الأسماك · صاحت :

– أخيرا وصلت !

أسرعتا بغلق النافذة ثم باب الشقة الذى تأكدت الأم من غلقه أكثر من مرة ثم هبطت على السلم برشاقة تكاد تشبه رشاقة ابنتها التى قفزت على الدرجات حتى الباب الخارجى للبيت · وسرعان ما كانتا فى السيارة مع تبادل التحيات والقبلات حيث جلست عفاف الى جوار أختها ، ومعالى فى المقعد الخلفى · شقت حكمت طريقها بصعوبة وحرص شديدين بين سلال الباعة الذين تراجعت نداءاتهم أمام صرخات البوق المتتابعة فتابعوا السيارة الفاخرة بعيون مبهورة حتى خرجت الى ميدان الجيزة · قالت معالى لخالتها :

– كنت اتوقع أن يمر وائل بى لأذهب معه لاستقبال عمى ؟!

– ألم يقل لك عن صديقه المريض بالمستشفى ؟!

تبادلت معالى مع أمها التى ادارت راسها الى الخلف نظرات ذات مغزى ثم قالت لخالتها :

ـ لم اعرف هذا الموضوع سوى الآن من ماما !!

ركزت حكمت عينين مترددتين بين الطريق امامهـا واختهـا بجوارها :

ـ لاحظت فى الأسبوعين الأخيرين انه اصبح منطويا ولم يعد يحكى لى شيئا عنك أو عن اى موضوع آخر كما اعتاد أن يفعل !!

تدخلت عفـاف فى بعض من الحرج والتـردد المتسائل فى حيرة :

ـ لعله تضايق لرفضك سفره الى أوروبا !!

ـ لم ارفض شيئا وانما هو الذى لم يفتح الموضوع منذ عودتنـا الى القاهرة ! ولا اخفى عليك فقد سعدت بسلوكه هذا لكننى قلقت فى الوقت نفسه !

ران سكون لم يقطعه سوى حفيف اطـارات السيارة عـلى الطريق المحاذى لكورنيش النيل ، ثم سؤال حكمت لابنة أختها :

ـ ألم تلاحظى يا معالى أى تغيير على سلوكه فى النادى أو فى حديثه معك .. خاصة وانه لا يخفى عليك شيئا ؟!

لم تتوقع معالى ومعها أمها أن يفتح الموضوع برمته بهـذه السرعة . فقد كان عليها أن تجيب على سؤال خالتها المحدد . قالت بعد تفكير متردد :

ـ لم يعد يصارحنى بشىء ! بل انه اصبح كثير الغيـاب عن النادى !

كانت عفاف تتابع كلمات ابنتها بقلق انتقل ليتربع على وجه اختها التى توقفت عند اشارة كوبرى الجلاء الحمراء :

– لا تقلقى ·· ففى امكان معالى أن تعلم منه أو عنه كل شىء !!

بدت رنة استنكار واضحة فى لهجة معالى وهى تربت على كتف أمها :

– لا يمكن أن أتجسس عليه والكل يعلم اننى خطيبته وكاتمة سره !

انطلقت السيارة صاعدة على كوبرى اكتوبر وحكمت تقول :

– ماما لا تقصد أن تكونى جاسوسة عليه ·· لكنك اصلح واقدر من يعرف سر التغير الذى طرأ عليه ·· ولذلك تحمست لذهابه الى المطار بمفرده حتى تعودى معه وتنفردى به لمدة ساعة على الأقل !

– لم أتعود أن أفرض نفسى على أحد !! لكن طلبك أمر يا طنط !

شعرت حكمت بدفء العائلة يغمر قلبها ويبرد من نار قلقه :

– برغم أننى لم أنجب بنتا فقد منحنى الله واحدة رائعة دون أن أتعب فى تربيتها !!

ربتت معالى على كتف خالتها :

– هكذا كان شعورى انا ايضا وسيكون دائما !

تراجع التوتر داخـل السيارة المنطلقة على كوبرى أكتـوبر امام العـذوبة التى سرت فى حديثهن عن عودة ابراهيم بعـد غيبة شهرين ونصف فى أمريكا لانجاز بعض الصفقات ، وعن اقتراب العـام الدراسى الـذى سيبدأ بعـد أسبوعين وأمل حكمت فى أن تستغرق الدراسة ابنها مرة أخرى تحت تأثير معالى ، وعن الخطاب الأخير الذى أرسلته مرفت من ألمانيـا وحكت فيه عن انتهـائها من الجانب العملى فى رسالتها بتفوق أسعد الأستاذ المشرف عليها ، ولم يتبق سوى الجانب النظرى الذى لن يستغرق وقتا طويلا ، وعن المعركة التى حدثت أخيرا فى النادى بين بعض الشباب لدرجة أن احدهم استخدمفيها مطواة قرن غزال هدد بها خصمه وكان علىوشك أن يصيبه اصابة بالغة لولا تدخل أحد المشرفين الذى يهابه الجميع! دقت عفاف على صـدرها دقة ممزوجة بشهقة والسـيارة تخترق شوارع مصر الجديدة فى طريقها الى المطار :

ـ ولماذا لم تقصى يا معالى هذه القصة المرعبة من قبل ؟! لم تعد النوادى مكانا يصلح لبنات الناس !! وهل هذه المعارك تكررت من قبل ؟! ليس من المستبعد أن يصيبك مكروه يا حبيبتى !!

ندمت معالى على تورطها فى حديث اثار قلق أمها دون مبرر، فهى ابعد البنات عن هـذا النمط من الشـباب ٠ حاولت اعـادة الطمانينة اليها لكن خالتها كانت اسرع من محاولتها بالسؤال :

ـ ووائل ؟! هل كان حاضرا أو مشتركا فى هذا الشجار ؟!

ـ وائل لا يميل الى تكوين صداقات متعددة خاصة مع امثال هؤلاء الشبان ٠٠ كما انه كان متغيبا يوم وقوع المعـركة التى لن تتكرر بعد أن اجتمع مجلس ادارة النادى وقرر معـاقبة الشابين بمنعهم من دخول النادى لمدة عام !

تساءلت حكمت وقد عاد الاحباط الى نبراتها :

– وما سبب هذا الشجار الحقير ؟! هل كان بسبب فتاة ؟!

حاولت معالى التخفيف من وطأة الموقف بضحكة مفتعلة :

– انتهى العصر الذى يتصارع فيه أبناء الذوات من أجل بنت ! لم تعد الفتاة – أى فتاة مهما كانت – تستحق فى نظرهم أى صراع أو تضحية !

تساءلت أمها فى سخرية لم تخف مرارتها :

– اياك أن تقولى انهم حاولوا تقليد ما يدور فى المسلسلات الأمريكية !!

– ولا هذا أيضا .. ما عرفته أن هذه المجموعة المتعاركة ادمنت الأقراص المخدرة !! وما أسرع وما أسهل أن يفقدوا أعصابهم ويقع بينهم ما لا تحمد عقباه !

عادت نبرة الحسم الى كلمات أمها :

– ابتعدى يا حبيبتى عن هؤلاء المجانين !! لا أريد أن أحبسك معى فى البيت !! ما هذا الزمن المجنون ؟! لكن من أين يحصلون على مثل هذه السموم ؟!

– لن تصدقينى يا ماما اذا قلت لك ان عمال النادى انفسهم يقومون بترويجها خفية دون أن يفشى سرهم أحد !!

احست حكمت بوحشة لمنظر الصحراء على جانبى الطريق :

– أخاف أن ينجرف وائل مع هذا التيار المدمر !!

ربتت معالى فى حنو بالغ على كتف خالتها :

– لا تخافى يا طنط .. حتى السجائر لا يدخنها وائل !!

– خيل الى أننى شممت رائحة دخان فى فمه عندما عاد الى البيت أول أمس !! هل كنت معه ؟!

عادت جحافل المخاوف تزحف وتطأ وجدان معالى :

ـ لم يأت الى النادى أول أمس ! لعله كان مع أحد أصدقائه !

ـ عجبا !! لم يعد متأخرا كعـادته ! عاد ورفض العشـاء ليختلى بنفسه فى غرفته !

برغم بلوغ الحوار هذه القمة الملتهبة ، فان برج المطار الذى بدا عمـلاقا تحت القبة الزرقاء ، والسيارات المـارقة على اليمين واليسار ، جعلت الصمت الصاخب يسيطر عليهن ، وحكمت تبحث عن مكان شاغر بين طوابير السيارات فى الساحة الغارقة فى ضوء الشمس السـاخن . هبطت من السـيارة صوب صـالة الوصول وحكمت تنظر الى ساعة يدها وتتلفت يمنة ويسرة فى قلق وتقول :

ـ جئنا فى الميعاد .. لكننى لا أجد أثرا لوائل !!

علقت عفاف فى محاولة لطرد قلق أختها :

ـ لابد أنه هنا أو هناك .. فالمطار كبير والزحام شديد !

كانت حركة المسافرين الى صالة الرحيـل ، والقـادمين من صالة الوصول قد امتزجت بضجيج السيارات على الأرض وهزيم الطائرات فى السماء . ووسط هذا الخضم شقت حكمت طريقها مع عفاف ومعالى حتى السور الحديدى الذى التصق به المستقبلون فى انتظار قدوم الأصدقاء وعودة الأحباء الذين هلوا بحقائبهم الضخمة المحملة على عربات اليد المعـدنية التى يدفعونهـا أمامهم فى حين تتصفح عيونهم الوجوه المتراصة أعلى السور فى قلق أو حيرة أو ابتسامة ثم أحضان وقبلات .

أعلن مكبر الصوت بصوت نسائى وقور وجذاب :

ـ وصلت طائرة الخطوط الجوية العالمية من نيويورك ... رحلة رقم ٢٤٠ .

نظرت حكمت حولها لكن ابنها لم يظهر !لكن معالى كانت على وشك أن تصيح عندما لمحته خلف الواجهة الزجاجية لقاعة الانتظار الكبيرة ، لكنها كتمت صيحتها فى الحال عندما ادركت انه يراقبهن حتى لا يلتقى بهن الا عنـد لحظة وصـــول ابيه ! فى تلك اللحظة الخاطفة تاكدت معالى ان تغيرا خطيرا جذريا قد طرأ عليه وليس امامها سوى أن تحسم الأمر اما بعودة الأمور الى مجاريها الطبيعية او بالابتعاد نهائيا عنه ، ولن يتاتى هذا الا بالمواجهة الصريحة بلا ادنى حرج أو حساسية !

دارت حكمت بعينيهـــا بين باب الوصول وبين الواجهـــة الزجاجية لقاعة الانتظار فى قلق بالغ لم تحتمله معالى التى طمانت خالتها :

– يبدو أننى لمحته فى القاعة .. سأذهب للبحث عنه !

– ونحن فى انتظارك هنا يا حبيبتى !

أسرعت معالى بدخول القاعة الفسيحة المزدحمة بكل الأنماط البشرية الواقفة او الجالسة أو الناعسة على المقـاعد المتلاصقة . توقفت عند فوهة المدخل فلمحت ظهره وهو يسرع الى الاختفاء وراء مجموعة من المنتظرين فى ركن قصى ! شعرت معـالى بتفاهتها هى اذا شرعت فى لعبة القط والفأر ! ظلت رابضة فى مكانها الذى أتاح لها فرصة مراقبة أمها وخالتها خلف الواجهة الزجاجية وفى الوقت نفسه رصد مخبأ وائل !! الذى يصر على تصغير حجمه فى نظرها حتى أصبحت على وشك أن تفقد احترامها له !

كان وائل يطل من حين لآخر عبر مجموعة الرجال الواقفين على شكل دائرة لعل معالى تكون قد عادت أدراجها ، لكنها تظاهرت بانهـــا لا تراه فى حين كانت ترصده من طرف خفى · وفجاة رأت أمها وخالتها وقد ابتعدتا فى لهفة بحيث لم تعد تراهمـا · أسرعت بدورها فوجدتهما تلوحان أمام بوابة السور الحـــديدى وعمهـا ابراهيم يدفع عربته المحملة بالحقائب بكلتا ذراعيه ويهز رأسه فى تحية حارة لهما · وسرعان ما تبـادل الجميع القبلات والأحضان الحارة وابراهيم بينهن بقامته الطويلة وملامح وجهه التى تشـبه الى حد كبير ملامح ابنه : الشعر الأسود الفاحم اللامع الناعم ، والعينان السوداوان بوميضهما النفاذ ، والبشرة البيضاء المشربة بما يشـبه الحمرة ، والأنف الحاد المشرئب الى أعلى ، والشـفتان الغليظتان تحـت شارب أسود دقيق نبتت فيـه بعض الشـعيرات البيضاء · نضحت عيناه بالتساؤل عن وائل فجمعت زوجته بعض الكلمات لتعليل غيابه ، لكنها قبل أن تنطق بها كان وائل فى وسطهم يتبادل القبلات والأحضان الحارة مع أبيه ، ووميض فرحة مضاعفة يتألق فى عينى حكمت ، ومتابعة مستفسرة فى عيون عفاف وابنتها · وسرعان ما دفع وائل العربة المعدنية وهو يكاد يصيح :

ـ ساخذ بابا فى سيارتى ·· لقد قتلنى الحنين اليه !

امسكت حكمت مقبض العربة بيد من حديد فاوقفت اندفاعه فجاة وصدمته صدمة داخلية حاول كتمانها وهى تقول فى حسم :

ـ الحنين اليه قتلنا كلنا ·· وليس أنت بمفردك ·· سنوزع الحقائب على السيارتين ·· وسيعود بابا معنا ·· أما أنت فستعود مع معالى ·· الا اذا كان لديك اعتراض آخر !

أرخى رأسه وقضم أظافره كما اعتـاد أن يفعـــل فى الأيام الأخيرة :

ـ أمرك !

ثم واصل دفع العـــربة الى حيث كانت ســيارته الحمــراء الصغيرة ملاصقة لأول طوار فى ساحة الانتظــار · فتح مؤخرتها ليضع داخلها حقيبتين ثم سار بالعربة المعدنية الى حيث وقف أبوه بقامته الفارعة وحلته التى تحاكى لون السماء مع أمه وخالته فى حين رابطت معالى الى جوار سيارته الصغيرة فى انتظار رجوعه ، والتفكير ينهش عقلهــا لدرجة أصيب فيهــا بالشرود ! صحت من خواطرها الشاردة على صوت باب السيارة وهو يفتحه لها دون أن ينبس ببنت شفة ، بل لاحظت أيضا أنه كان يتجنب نظراتها اليه كما لو كان خائفا من أن تفضحه عيناه وتعريان شيئا أثيرا يحرص على كتمانه ! أدار محرك السيارة ومعه مفتــاح المســجل الذى صــدح بموسيقى صاخبة أراد بها أن يشــغل فراغ الســكون برغم ضجيج السيارات حولهما !

انطلق بها كالصاروخ دون نظرة أو كلمة كمن يريد أن ينتهى من مهمة ثقيلة على قلبه بأسرع ما يمكن ! تذكرت معالى غرامه بالثرثرة أثناء القيادة واصرارها على الالتفات الى الطريق الــذى يطويه أمامه ، لدرجة أنها كانت تدير رأسه فى بعض الأحيان حتى لا يواصل النظر اليها وخاصة بعد أن كان على وشك أن يدهم رجلا مسنا ذات مرة ! أما الآن فقد أصبحت القيادة متعته الوحيدة وهمه الأساسى فى هذه الدنيا ، ومع ذلك لم تشأ معالى أن تفلت الفرصة من يدها بعد طول تهرب ومراوغة · انها لن تكرهه على حبها ، لكن هناك شيئا بينهما لابد أن يحسم ! فلتكن أزمة طارئة تجتاح حبهمــا تعود بعدها المياه الى مجاريها ، ومن حقها أن تعرف كل أبعادها واحتمالاتها وتشارك فى امكانات حلها ، أو فلتكن نهاية كل ما بينهما من روابط عاطفيــة وآمال مستقبلية ، فالحب عنـــدها لا يعـــرف الاستجداء حتى لو عاشت عمرها كله بدون زواج ، وعليه أن يدرك

أن كرامتها قبل حبها وفوقه ! قررت فتح الجبهـة على مصراعيهـا والسيارة تتوغل فى شوارع مصر الجديدة :

ـ لم نتبادل حديثنا المعتاد منذ مدة !! فلم أعد أراك الا نادرا !

تأملته وهو يضاعف انهماكه فى القيادة متظاهرا بعدم انصاته اليها لكنها كانت قد قررت بلوغ نهاية المطاف معه ، مهما كانت هذه النهاية :

ـ هل صدر منى ما ضايقك ؟! لو كان هذا قد حدث فعلا فثق انه بدون قصد !

كان صوتها عاليا هذه المرة بحيث لم يستطع الاستمرار فى تجاهله :

ـ أبدا !! لم يحدث شىء !!

ـ لكنك ·· بصراحة ·· لم تعـد كمـا كنت !! فأنا لست بالسذاجة حتى أقتنع بهذه البساطة بأن شيئا لم يحدث ! انك تتصرف كما لو كنت قد عرفتنى اليوم فقط ، أو كما لو كان كل شىء بيننا قد انتهى الى غير رجعة !!

تردد لحظات متشاغلا بمتابعة اشارة المرور الحمـراء لكنه اضطر للقول :

ـ كل ما فى ذهنك هواجس وأوهام لا أساس لها من الصحة!

ـ لم أعهد فيك من قبل أن تستهين بعقلى !

ازدادت قبضته على عجلة القيادة وهو ينطلق بين السيارات المارقة صوب العباسية تحت لهيب الشمس :

ـ لم أستهن بعقلك !

ومض التحفز فى عينيهـا العسليتين الضيقتين ، وشفتيهـا الدقيقتين الرقيقتين ، وأنفها الحاد :

– لن ادخل معك فى جدل عقيم ٠٠ انا أؤكـــد وانت تنفى !! اذا كنت قد سئمت منى فارجو أن تكون لديك الشجاعة لتصارحنى بذلك وثق انني لن افرض نفسى عليك !!

نزلت الجملة الأخيرة ببعض السكينة على قلبه لكنه لم يحتمل اتهامها اياه بالجبن فهى لم تتعلم ان تلزم حدودها بعد :

– لا احب أن يتهمنى احد بالجبن !

– لم اتهمك بشىء !! لكن أظن من حقى ان اعلم سر هـــذا التحول المفاجىء والغريب !! ولن اصدق انكارك له مهما حاولت !!

– وتتهميننى بالكذب ايضا ؟!

صاحت فى وجهه بعد أن ضاقت بخبثه المراوغ الذى اكتشفته مؤخرا :

– تذرع كما شئت بالحجج المراوغة !! لكن اياك ان تظن انني سوف ألهث وراءك !!

كان رده خاليا من التفكير تماما :

– وأنا ايضا لن ألهث وراءك !!

– الحب لقاء حميم على ارض مشتركة !! بحيث لا يضطر اى طرف أن يلهث وراء الآخر !!

– واذا لم توجد هذه الأرض المشتركة ؟!

– هل اكتشفت هذه الحقيقة اخيرا ؟!
تردد فى الرد لكنها كررت سؤالها بعنف اشد فقال :
– للأسف !

ثم قرض اظافر يسراه وضاعف من سرعة السيارة حتى كاد أن يصطدم بسيارة مارقة صوب ميدان رمسيس ٠ لم تعبأ باندفاعه فقالت :

ـ كنت أتمنى أن تكتشف هـذه الحقيقة فى زمن مبـكر حتى لا أضيع وقتى فيما لا يفيد !! ومع ذلك اؤكد لك أن شخصا آخـر هو الذى قادك الى هذا الاكتشاف٠٠لكنه موضوع لا يهمنى مادامت النتيجة واحدة !

نظر اليها بلا ارادة ثم عاد لمراقبة الطريق المزدحم أمامه وهو يقرض اظافر يسراه دون وعى ! تأكدت معالى من صحة ظنونها ومن صدق شائعات النادى ، ولم يتبق لها سوى أن تتأكد من حقيقة تلك التى أذهلته عن كل شىء ، وتراءت أمامها صورة هناء لكنها سرعان ما طردتها من مخيلتها ، فهى ليست على استعداد أن تضيع وقتهـا الثمين فى تحريات عن العلاقات الغامضة الخفية لهذا الطفل المدلل القابع الى جوارها وكله شوق كى يتخلص منها بأسرع ما يمكن ، وخاصة أن العام الدراسى على الأبواب ! ولن تسمح لنفسها بالانقياد وراء العاطفة الهوجاء ، فلن تأمره بالتوقف كى تستقل سيارة أجرة الى البيت ، لكنها ستأمره بالتوجه الى البيت وبعدها لن تعبأ برؤية وجهه الخائف المتردد مرة أخرى !

كانت أبواق السيارات وضجيج المحركات وحفيف الاطارات كفيلا بطرد وطأة الصمت الصاخب بينهما ٠ انتابت معالى أحاسيس تجمع بين الارتياح والضيق والاحباط : الارتياح لأنها أوشكت على الخروج من قاع الحيرة التى أجتاحتها منذ أن تغير سلوكه تجاهها ، والضيق لأنها أضاعت سنوات جميلة فى وهم كاذب ، والاحباط لأنها فشلت فى أن تصنع من هذا الطفل المدلل رجلا !

بمجرد أن عبرت السيارة كوبرى اكتوبر قالت دون أن تنظر اليه :

ـ أرجو أن تتوقف لحظة فى ميدان الجيزة !

خرج صوته فى شبه تردد مرتعش :

ـ لماذا ؟! الن تأتى لقضاء اليوم معنا ؟

ـ سأترك عمى ليستريح اليوم من السفر ؟! ولتستريح أنت من رؤيتى !!

ـ ماذا جرى لتقولى مثل هذا الكلام ؟!

ـ اسأل نفسك !

ـ كما تحبين !

ـ فعلا ٠٠ فمن حقى أن أمارس حريتى مثلك تماما !

أجاب بالصمت وقد أدرك هدفها ! انها تريد أن تحرجه أمام امه وأبيه وخالته عندما يتساءلون فى دهشة عن عدم مجيئها معه ! لاتزال تحاول فرض وصايتها عليه ولكن بطريقة غير مباشرة لكنها لا تعلم أن هذه الحيل الساذجة لم تعد تنطلى عليه ! فقد شب عن الطوق وذاق طعم الرجولة ، وأصبح هنـاك من يحتاج اليه ويسعد بوجوده ويمنحه من النشوة ما لم يكن يحلم به ٠ والفضل فى هـذا يرجع لهناء التى ملأت عليه ليله بطيفها ونهاره بجسدها ، ويتمنى أن يطير بسيارته اليها الآن !

بلغت ميدان الجيزة فتلكأ قليلا لكنها أمرته بالوقوف فتوقف ! فتحت الباب وهبطت دون وداع لتنطلق فى رشاقة وسط السيارات عابرة الشارع الى الجانب الآخر ، فى حين انطلق وائل مع ارتياح عميق بعدم وجود من يعكر صفو أحلامه وخواطره حول هناء ، بل

انه يريد أن يخلص من واجب الترحيب بأبيه بأسرع ما يمكن ، فهو فى انتظارها على احر من جمر • والحمد لله لأن أباه مشغول دائما وسرعان ما تجرفه دوامة أعماله ومشروعاته التى حاول كثيرا ان يجذبه اليها لكنه كان يتذرع دائما بدراسته التى لابد أن ينتهى منها أولا قبل أن يخوض ميدان الحياة العملية •

اخترق نفق الهرم مستمتعا بقشعريرة سرت فى جلده عندما اجتر قبلات هناء الملتهبة ، وأحضانها الساخنة ، ولمساتها الكهربية • وصاحبه طيفها حتى بلغ الفيللا البيضاء الأنيقة التى تقع أمام ترعة صغيرة بمحاذاة شارع جانبى من شارع الهرم الرئيسى • نهض البواب الأسمر يسأله عن البك الكبير فعلم وائل بأنهم لم يصلوا بعد • احتار ماذا يفعل ؟! لكن سرعان ما هداه تفكيره الى اخراج الحقيبتين من مؤخرة السيارة التى وقفت فى ممر الحديقة الصغيرة •• أسرع البواب فحمل كبراهما وفى أعقابه سار وائل بالصغرى ليسبقه ويفتح قاعة المدخل حيث وضعا الحقيبتين • تجول فى الحديقة بعض الوقت مع طيف هناء حتى سمع محرك السيارة البيضاء الكبيرة وهى تدخل من البوابة لتقف خلف سيارته والبواب يلهث مرحبا • هبطوا من السيارة وعينا خالته تتساءلان عن ابنتها باحثة عنها فى أرجاء الحديقة ثم قالت حكمت فى حسم :

ـ اين معالى ؟!

وأضافت أمها :

ـ الم تأت معك ؟!

جرى وائل الى أبيه يساعده فى اخراج الحقائب مع البواب من مؤخرة السيارة فتبعته أمه وأمها وهما تكرران السؤال الذى أجاب عليه دون أن ينظر اليهما وهو يلعنها فى سره :

ـ اصرت على توصيلها الى البيت ؟!

ـ لمـاذا ؟!

خرجت من فميهما باللهفة فى لحظة واحدة لكنه كان قد سئم كل شىء :

ـ لا أعرف ! يبدو أن لديها شيئا عاجلا تريد انجازه !

علقت عفاف فى ضيق متصاعد :

ـ عجبا ! كانت تخطط لقضاء اليوم كله معنا !

ـ ماذا جرى يا وائل ؟!

خرج صوت أمه حاسما جهوريا فتلفت وائل حوله فلم يجد أباه الذى اختفى مع البواب بالحقائب . حمل الحقيبة المتبقية وهرع خلفه قائلا :

ـ لا أعرف !! اسأليها !! فلست أنا الذى تخلفت عن المجىء!

ثم اختفى داخل الفيللا وخلفه أسرعت حكمت وعفاف التى عبرت البهو الفاخر ذا الأثاث الجميل الأنيق الى غرفة جانبية بها تليفون فى حين صاح ابراهيم :

ـ ما أروع أن يعود الانسان الى وطنه وبيته !! كم قتلتنى الوحشة والحنين اليكم ؟! لكن أين معالى ؟! حملتنى مرفت أمانة اليها عندما زرتها فى المانيا !

جلس ثلاثتهم على المقاعد الوثيرة ليبرر وائل عـــدم مجىء معالى معه بنفس الاجابات لكن حكمت حسمت الموضوع :

ـ على كل حال سنعرف السبب منها هى شخصيا !

ـ لابد أن تصدقيها وتكذبينى !!

ـ انت لم تقل شيئا حتى اكذبك !

ضحك ابراهيم فى حنان زاخر بالدعابة :

– هل هذه هى الطريقة الجديدة للترحيب بى ؟!

لم تشاركه حكمت الدعابة بل قالت :

– كانت معالى فى غاية الشوق اليك ! سأذهب بنفسى لاحضارها بمجرد أن تنتهى عفاف من مكالمتها !

كان وائل على وشك أن يقترح القيام بهذه المهمة لولا تدخل أبيه :

أريدك أن تبذل يا وائل اقصى ما فى وسعك !! فأنا فى انتظار تخرجك بفارغ الصبر حتى تشاركنى المسئولية كما اتفقنا !

– وهل حدث أن رسبت من قبل ؟!

– كفاك الله شر الرسوب يا بنى !

عادت عفاف لتخبرهم بمجىء معالى فى ظرف نصف ساعة وهى تضغط على كتف أختها لتجلس مرة أخرى اذ لا يعقل أن يذهب الكبير لاحضار الصغير مما اضطر وائلا الى النهوض عارضا خدماته لكن عفاف جلست وهى تقول له :

– لا تتعب نفسك ! فهى الآن فى الشارع تبحث عن تاكسى !

تمنى وائل فى قرارة نفسه أن تنتهى هذه الجلسة بأسرع ما يمكن ليطير الى جنته التى قتله الحنين اليها برغم أنه كان يتمرغ فيها فى الليلة السابقة فقط ! سرت لمسات هناء فى عروقه فاقشعرت بشرته لدرجة أنه لم يلتفت الى نبرة ابيه الجذلى وهو يفتح الحقيبة الكبرى :

– لنر ماذا أحضرت لكم هذه المرة !

- ٤ -

قفزت هناء من فراشها مثل قطة شرسة وهى تمد يدهـا الى التليفون الذى واصل رنينه حتى رفعت السماعة وقد تقوقعت فى قميصها الوردى الشفاف الذى انحسر تماما عن فخذيها المرمرين. أجابت بعينين مسبلتين :

ـ آلو .. كيف حالك ؟! ..... أبدا ! حسن انك أيقظتنى فأنا على ميعاد بعد أقل من ساعة !! ..... أنت تعلم جيدا مع من ؟

قالتها وهى تنظر فى نعاس باسم الى المنبه الصغير بجـوار التليفون فى غرفتها التى تحولت الى الفوضى بعينها ! كانت تستمع الى الصوت الآتى من الطرف الآخر بابتسامة عريضة أوشكت أن تنقلب الى ضحكة وهى تجيب :

ـ منذ أن عرفتك لم أعهد فيك سوى الذكاء وسرعة البديهة !!. لا تعرف كم أصبحت متعلقة بك ؟! ...... متعلقة كلمـــة ضعيفة ..... أقصد مدمنة !! ..... لو كان فى مقدورى لرأيتك كـل يوم !! لكنك تعلم أننى فى أشد الحاجة الى المال !! ...... فاذا كنت أنت وزارة التموين فلابد من وجود وزارة للخزانة !! .....

.سترخت على ظهرها وهى تحتضن السماعة متأملة السقف الذى أصبح فى أشد الحاجة الى اعادة طلاء بعد أن تحول بياضه الى رمادى كالح ، وفى احدى الزوايا نسجت عنكبوت خيوطها فى دأب لا يعرف الكلل · أطلقت هناء ضحكة مشروخة أعقبها سعال نهضت على أثره لتخرج سيجارة من علبة الى جوار التليفون أشعلتها ثم استرخت على الوسادة ·

ـ اياك أن تشعر بالغيرة !! فأصدقائى كثيرون !! لكن تأكد اننى لم أعرف الحب قبل أن ألقاك ····· حبك من نوع فريد ولا حتى فى الروايات ·· يكفى أنه فى هذه الفترة الوجيزة لم يعد بينى وبينك أى حاجز من أى نوع ······· ومع ذلك أريد أن يظل حبنا سرا بيننا ·· فأنا أخاف عيون الحساد والعوازل !!

أطلقت نفسا طويلا شفافا من فمها وأنفها ، وفى أعقابه ضحكة رددت أصداءها جدران الغرفة المختفية خلف دولاب عريق فخم له مرآة مكسورة عكست جسدها المسترخى على الفراش وقد شطرته الى نصفين ، وعلى الجدار الآخر علق مشجب ناء تحت ملابسها الداخلية والخارجية التى بدا بعضها وكأنه فى انتظار الغسيل ، وعلى الجدار الذى ينتهى بالباب علق رف عليه زجاجات مختلفة الأحجام والألوان يبدو أنها تحتوى على أدوية وأقراص · نهضت جالسة لتتأمل جسدها شبه العارى فى المرآة المكسورة وقد افترشت ابتسامة لعوب وجهها الشاحب بعض الشىء ، ونظراتها الزائغة وسط حمرة عينيها · وضعت يدها على رأسها لتجرى على جدائلها الفضية :

ـ آه !! عندى صداع يكاد يحطم رأسى ·· صداع لن ينقذنى منه سواك ····· آه ! منذ عرفتك وقد فقدت شهيتى تماما للطعام !! ····· يقولون انها أعراض الحب !! ····· لكن هل يصيب الحب الانسان بالهبوط وخاصة بعد استيقاظه من النوم ؟!

نظرت الى المنبه واستدارت لتنزل ساقيها اللتين لامســـتا الأرض وهى تسحب نفسا عميقا من السيجارة لتطلقه مرة اخرى ٠ هزت ساقيها فى عصبية :

– على كل حال ٠٠ لن نضيع الوقت فى الكلام عمـــا سوف نفعله طالما أننا سنفعله ٠٠٠٠٠ وهو كذلك !! ساتى للقائك على أحر من جمرك !!

ثم أطلقت ضحكة مصحوبة بشهقة طويلة أعقبتها بجلجلة قبلة من شفتين مضمومتين :

– باى باى ٠٠٠ باى باى ٠٠٠ باى باى يا روح قلبى !!

وختمت حديثها بقبلة اخرى أعلى جلجلة عبر الأسلاك ٠ ثم وضعت السماعة وأطفأت بقايا السيجارة والقت بقميص نومها على مدى ذراعها حتى نهاية الفراش ، فلم يبق على جسدها المرمرى النحيل سوى الاطار الأحمر الدقيق الشفاف الذى يحيط بالردفين ! أسرعت الى الرف لتفتح احدى الزجاجات وتتناول منها اكثر من خمسة أو ستة اقراص دفعة واحدة أعقبتها بنصف كوب ماء كانت الى جوار التليفون على الكومودينو المـــلاصق للفراش ٠ ادارت مسجلا ضخما على مقعد فى أحد الأركان فصدح بموسيقى مجنونة هزت أصداؤها الجدران ! هرعت الى الحمام وجسدها يتمايل كغصن البان مع الايقاعات المتشنجة حيث اخذت حماما باردا برغم لسعة البرد المبكرة فى اوائل نوفمبر !

لم تكن فى حاجة الى مساحيق التجميل والوانها ! حتىشفتيها الشاحبتين لم تفكر فى طلائهما بحمرة وردية ٠ ارتدت ثوبا احمر خفيفا وحزاما وحـــذاء اسود ، رشت تحت ابطيها وخلف اذنيهـا بالعطر الذى يعشقه وائل ، ففاحت الغرفة المترية به ٠ القت بجدائلها

الفضية خلف اذنيها ووضعت فى حقيبتها السوداء الصغيرة اللامعة علبة سجائرها · ألقت نظرة أخيرة على طلعتها البهية فى المرآة المكسورة فسرت برغم الشرخ الغائر ! وسرعان ما كانت فى المصعد الذى هبط بها من الدور العاشر ليلفظها الى سور النيل حيث استقلت سيارتها الصفراء أمام الطوار لتنطلق بها ·

كان وائل منتظـرا فى سيارته ينظـر الى ســـاعته ويقرض أظافره · فلم يتعود أن تتأخر عن ميعادها دقيقه واحدة ، وها هى هذه المرة تتأخر أكثر من ربع ساعة ! فماذا جرى ؟! وما السبب فى هذا ؟! لعل المانع خير ! لقد أصبحت تجرى فى عروقه كـــدمائه تماما ! اشعل سيجارة من علبة مخبأة فى درج السيارة ، وأطلق نفسا كثيفا من فمه · مسح الطريق بعينيه وعاد بخفى حنين ليجتر ذكريات الفترة الأخيرة وملامحها المثيرة · لم تبخل هناء عليه بشىء لدرجة أنه أصبح واثقا من أنها على استعداد لتصل معه الى نهـاية المطاف التى راودت خياله فى النهار وأحلامه فى الليل ! لم تطلب منه أى مقابل سوى متعة الحب ونشوته فى حين لم تكن معالى تكف عن حديث الزواج والأطفال فى بيت المستقبل ! لقد علمته هناء أن الحب عطاء متواصل ، وهو يتمنى أن يجعلهـا أســـعد امرأة فى الدنيا ! لكنه لايزال يشعر أن هناك ما تخفيه عنه ، وكانت على وشك أن تفضى به أكثر من مرة · وفى كل مرة كانت تمسك عن البوح به فى آخر لحظة ! وكم مات شوقا الى معرفته وهو يقرض أظافر يمناه ثم يسراه !

لكن هذه المرة لابد أن يشعرها بأن هناك رجلا يساندهابكل شىء كما اوشكت هى على أن تمنحه كل شىء ! فى كل مرة كان يحمل فى حافظته مبلغا لا يقل عن ثلاثمائة أو أكثر من الجنيهات حتى لايحرج ·· وهو الذى أصر على دعوتها الى قضاء عدة سهرات فى بعض الأندية الليلية والفنادق ، وقبلتها على مضض · كذلك لاحظ حمرة

عينيها التى كانت كثيفة فى بعض الأحيان ، وشرودها كأنها تحمل هموم الدنيا كلها على كاهلها ! ومع ذلك تركت يده تجوس فى دهاليزها ومنعطفاتها حتى تبهج حياته وهى التى فى أشد الحاجة الى البهجة !

عاد يمسح الشارع الخالى بعينيه فلم يبد لها أى أثر عنـــد المنحنيات والمنعطفات التى تؤدى الى القمة التى وقفت عليها سيارته فى تلك البقعة النائية فى مدينة المقطم والتى اتفقا على أنها أصلح مكانلهما وخاصة عندما يهبط الظلام ويمتزجبالسكون المشبع بهواء الصحراء الجاف ! لا أحد يعكر صفو خلوتهما حتى أوشكت السيارة على أن تصبح شقة خاصة بعيدة عن العيون المتلصصة ، حيـث السكون الذى يسمع فيه دقات قلبها ، وآهات انفاسها ! ومصات شفتيها ! والذى عشقه بجنون برغم أنه يثير فى نفسه الآن رهبة تكاد تكتسح النشوة التى ادمنها فى الشهر الأخير وتجعله يقرض اظافره دون أن يشعر !

كان يرتدى حلة بيضاء خفيفة برغم أنف نوفمبر حتى يستشعر جسدها بقدر الامكان ! نفض رماد سيجارته عدة مرات خارج النافذة المفتوحة بعد نفثات مكثفة من الدخان ، وبمجرد أن لمح سيارتهـا سقطت السيجارة من بين أصابعه على الطوار ، وعزفت أوتار قلبـه اهازيج النشوة المرتقبة ، والسيارة تقترب وهى تلوح بيدها لتقف خلفه وتسرع بالهبوط والجلوس الى جواره فى حين كانت الشمس تهبط بقرصها الأرجوانى عند خط الأفق المحيط بالقاهرة الصامتة عند اقدام المقطم ٠

أمسك يدها وانحنى عليها يقبلها فى خشوع ، لكنها لم تبتسم كعادتها بل رفعت رأسه لتسأله فى حرج واضح :

ـ هل قلقت على لتأخرى ؟!

اجاب لاهثا من خلالال نظرات مسبلة :

ـ طبعا !! تعرفين هذا دون حاجة الى سؤال !

ـ اعاقتنى حركة المرور البطيئة الكثيفة برغم مغادرتى المبكرة للبيت !

ثم عبرت وجهها سحابة قاتمة من الحزن والاحباط ! كان وائل قد اعتاد هذه السحابة العابرة من قبل لكنها هذه المرة جثمت بكل قتامتها على عينيها وشفتيها فقرر أن يواجه الموضوع برمته :

ـ لا أزال مصرا على أنك تخفين عنى ما يكدر صفوك !! وهو ما يكدر صفوى أنا ليل نهار !!

لم تجبــه وانمــا اخرجت ســيجارة من حقيبتها فأسرع الى اشعالها لها بولاعته الذهبية كمدخن خبير أشعل بدوره ســيجارة لنفسه · امتزجت سحابة وجهها القاتمة بسحب الدخان المتماوجة عند سقف العربة وهى تقول :

ـ ولماذا تحمل همى ؟!

كانت تتابع قرص الشمس الذى أوشك على الغرق عند الأفق المجهول ، فأدار وجهها برقة تجاهه واحساس بأولى خطوات النصر يجتاحه · فقد نجح أخيرا فى اجلاسها على كرسى الاعتراف ·

ـ كنت واثقا أن ظنى فى محله ! لكن ثقى انه لشرف بل متعة عظيمة أن أحمل همك !! فاذا لم أحمله أنا فمن يحمله ؟!

انقشعت السحابة القاتمة عن الابتسامة التى يعشقها :

ـ قد تسأمنى !! فهمومى ثقيلة ومتواصلة !

اطلق سحابات الدخان من فمه ودفقات الثقة من وجدانه :

ـ يبدو ان ثقتك بى ليست بالقدر الذى كنت اتخيله أو الـذى صوره لى غرورى !!

مسـحت يده برقة اثارت داخله وخـارجه تلك القشـعريرة الكهربية :

ـ أنت لا تعرف ماذا تعنى بالنسـبة لى ؟! أنت كـل شىء فى دنياى !!

صدحت بلابل النشوة وهدرت ينـابيع السحر وهطلت سيول الشبق فاغرقته فى طياتها المتدفقة بين القمة والقاع · انهـال على وجهها وعنقها بالقبلات واعتصرها بين ذراعيه فاذا بالدموع تنهمر على وجنتيها ولسانه يلعقها سكران بمذاقهـا الحريف المـائل الى الملوحة ، ويلهج بالسؤال الملح :

ـ ماذا بك يا حياة قلبى ؟! لا احتمل دموع الحزن واليأس على وجهك الفاتن ولو للحظة واحدة ؟! لن يهدأ لى بال الا اذا عرفت ماذا يضنيك ! ارجوك ·· اثبتى لى انك تحبيننى فعلا !!

ازاحت وجهها الى الخلف فى رقة واخرجت منديلها لتمسح وجنتيها :

ـ ساحكى لك كل شىء !! لكن عدنى بانك لن تتضايق !

ـ اعدك بروحى !

ـ انت تعلم بالفعل اننى أعيش وحيدة بعد رحيل جدتى !! فزوج أمى لا يحتمل وجودى معها ·· وكذلك زوجة أبى !! لـكن ما عوضنى بعض الشىء عن حنانهما الذى حرمت منه ·· المـال الذى كان يغدقه أبى على حتى أواصل الحياة على المستوى اللائق باسرتى !! لكن يبدو أن حظى التعس مصر على مطاردتى الى ما لا

نهاية ٠٠ ففى الشهور الأخيرة بدأ أبى فى التقتير على تارة بحجة اننى فشلت فى دراستى بسبب تدليله لى بمنحه كل ما أريد ويزيد !! وتارة أخرى بحجة أن أعماله وأرباحه لم تعد على ما يرام !! وتارة ثالثة بحجة أننى أضيع المال فيما لا يفيد !! لكن الحقيقة البشعة التى تأكدت منها أخيرا أن زوجة أبى قررت أن تستأصل جذورى تماما من حياته حتى تنفرد به هى وبناتها ! والآن أصبح ما أحصل عليه منه لا يكاد يكفى ثمن سجائرى !

وانهمرت دموعها مرة أخرى ولكن أعقبتها شهقات مشروخة وتنهدات جريحة ، وعينا وائل كرتان سوداوان مترددتان فى محجريهما ، وأظافر يسراه بين أسنانه ، فى حين ألقى بالسيجارة من النافذة بحثا عن كلمات مناسبة لم تسعفه حتى تساءلت هناء فيما يشبه الحرج وقد انطفأ بريق عينيها الرمادى خلف سحابات الدخان :

ـ ألم أقل لك انك ستتضايق ؟!

ـ أبدا ٠٠ أبدا !!

ودون تفكير أخرج محفظته من جيبه وألقى بكل ما فى قلبها من أوراق مالية فى حجر الفستان الأحمر ، لكنها قبضت على الأوراق بيد من حديد ثم ألقت بها فى حجره فى محاولة للصراخ المكتوم :

ـ هل جننت ؟! لو كنت أعرف أنك ستأخذ كلامى على هذا المحمل لما صارحتك أبدا بهمومى !! لا تجعل الندم يقتلنى على ما قلته !!

وبذراع منتفضة بشدة التوتر والعصبية والحساسية أعاد إلقاء الأوراق مرة أخرى فى حجرها لدرجة تناثر بعضها حول ساقيها وعند قدميها :

ـ أنت تملكيننى جسدا وروحا !! فكيف لا تملكين ما أملك ؟! اذا رفضت التفضل بأخذ هذه الملاليم فلن ترى وجهى مرة أخرى !!

مسحت بقايا الدموع على وجنتيها لكنها انهمرت مرة أخرى :

ـ لم أتصور فى لحظة من اللحظـات أنك ستنظر الى هـذه النظرة ؟!

انهال بشفتيه على وجنتيها وعنقها وجدائلها وصدرها :

ـ تعرفين جيـدا أننى أعبدك ! أرجوك .. اجعلينى أشـعر بقيمتى عندك ! الحب ليس كلاما !! لقد منحتينى ما لم أكن أحلم به دون مقابل !! فهل تبخلين على برفض مثل هذه المساندة التافهة ؟!

تركت نفسها وجسدها بين ذراعيه وداخل أحضانه ، وكلماتها المتقطعة لتمتزج بتنهداتها :

ـ قلبى يدفعنى الى منحك كل شىء .. لولا خوفى من بواب العمارة وعيون الجيران لدعوتك الى شقتى بدلا من لقائنا هكذا فى الشوارع الخالية والمظلمة وتحت رحمة النظرات المتلصصة !!

فاض قلبه بينابيع النشوة المثلجة المتـدفقة على جمـراته ، وشعر بالثمرة وقد دنت منه وحان قطافها لكنه احتواها بحنان رقيق:

ـ لست بهذه الدرجة من الطمـع ؟! يكفينى قربى منـك !! لا حرمنى الله منك أبدا !

ثم جمع الأوراق المتناثرة عند قدميها وهو يقبل ساقيها حتى أعاد جمعها ثم فتح حقيبتها السوداء ودسها داخلها وأغلقها فى حجرها وهى فى قمة استسلامها الحالم الباسم له . قال مستمرئا نشوة المنتصر :

ـ ومادامت كل الحواجز قد زالت بيننا تماما ٠٠ فلدى بعض الأسئلة التى تمنيت ان أجد لها اجابات منك دون أدنى احراج أو ضيق !!

القت ببقايا سيجارتها من النافذة وقد تألقت عيناها بوميضهما الرمادى الذى يعشقه :

ـ لا داعى لهذه الحساسية بعد أن فتحت لك قلبى لتتربع على عرشه !

ـ شعرت فى بعض الأحيان ببعض الغموض فى تصرفاتك التى لم افهم لها سببا محددا ٠٠ تصرفات تتميز بالعصبية الشديدة ٠٠ أحيانا بالشرود ٠٠ وأحيـــانا أخرى بثقل اللســـــان واحمـــرار العينين !!

لم يزاوله الحرج وان كان قد شعر بالتخلص من حمل ثقيل ابهظ كاهله منذ بداية صداقته لها ٠ ترددت قليلا ثم قالت فى همس مبحوح :

ـ الضغوط النفسية التى صارحتك بها ليست بالبساطة التى تتصورها !

لم تشف الاجـــابة غليله فقرر بلوغ نهاية المطـــاف وهو يقرض اظافره :

ـ لا أخفى عليك ٠٠ فقد ألمحت صديقة فى النادى على مسمع منى الى أنك تتعاطين الأقراص المخدرة ؟!

ذهلت هناء عندما سألها الطفل المدلل أسئلة الكبار لكنهـا تداركت الأمر فى حنكة تفوق سنها :

ـ ومن هى هذه الصديقة ؟! أهى معالى ؟!

ـ لا ·· أبدا !! كما أنها ليست صديقة لى بمعنى الكلمة ··

ولم تكن تخاطبنى بل أنا الذى التقطت ما قالته دون قصد منى أو منها !

ـ لا أعرف لمـاذا يصر الجميـع على مطـاردتى بأحقـادهم وأكاذيبهم وشائعاتهم ؟ هل لأن الله قـد خلقنى بهـذا الجمال ؟! أم لظنهم أننى أتربع على تل من المـــال والثروة ؟! أم لأننى لا أسمح لأحدهم بأن يدس أنفه فى حياتى الخاصة ؟!

ـ لم أقصد أن أضايقك ·· فقد اعتقدت أن من حقى معرفة كل شىء عن الفتاة التى أعيش من أجلها !

ـ أنت الآن تعرف كل شىء عنى بالفعل !! لكننى أخشى أن يكون قد بلغ معالى شىء من هذه الأحقاد والأكاذيب والشائعات !!

ـ أرجوك ·· لا تفكرى فيها ·· فلم يعد لها مكان فى حياتى !! فنحن نتقابل فى الكلية الآن كالغرباء ولا تتصورى مدى سعادتى لتجاهلها لى !!

استرخت هناء فى مقعدهـا وأخرجت سيجارة ســارع الى اشعالها ثم أشعل لنفسه أخرى :

ـ على كل حال ·· اعتبرى أننى لم أقل شيئا !

ـ المهم عندى ·· هل تصدق ما سمعته ؟!

ـ لا أصدق سوى ما أسمعه منك أنت شخصيا !

ربتت على شـعره واحتوته فى أحضانهـا ولســانه يلهج هامسا :

ـ لم أفاتحك الا بدافع حبى لك وقلقى عليك ·· فربما كنت فى حاجة الى مساعدتى !!

خرجت همساتهـا فحيحا امتزج بالعطر المسكر المنبعث من جدائلها خلف أذنيها :

ـ من الآن لن أشعر بأى حرج اذا احتجت لمساعدتك !

ـ وسأكون دائما رهن اشارتك .. فليس لى سواك فى هـذه الدنيا !

ألقت بالسيجارة خارج النافذة وتبعها بسيجارته ليحتويها مرة أخرى منتشيا بعطر الفل الممتزج برائحة الدخـان فى فمهـا ، وقد عادت يسراه لاستكشاف الحنايا والدهاليز والكهوف المظلمة الرطبة التى تتوغل به بين الأمواج المتلاطمة لبحيرة السحر والنشوة والشبق !

- لابد أن تعلمى يا سيدتى أن الضغوط التى تعانى منها المدارس الآن ٠٠ سواء من ناحية قلة عدد المدارس فى مواجهة الانفجار السكانى أو عدم الاقبال على مهنة التدريس ٠٠ أو الفصول المكتظة بالتلاميذ لدرجة الاختناق ٠٠ كل هذا جعل التعليم المهمة الأساسية التى نرجو أن نوفق فيها قدر الامكان ٠٠ أما التربية فلابد أن ينهض البيت بالعبء الأساسى فيها !! فقد أصبحت التربية رفاهية لا نقدر عليها لأننا لا نملك الوقت أو الجهد فى مدرسة يتغير تلاميذها ثلاث فترات يوميا !

كان التوتر يطفح على كلمات حكمت المنطلقة كالقذائف المنهالة على رأس أم جاءت تشكوها هبوط المستوى الدراسى لابنها ٠ لم ترضخ الأم لعصبية الناظرة بل قالت بصوت لم يخل من انكسار :

- اننى أمر بظروف صعبة للغاية ٠٠ فقد طلقنى زوجى من أجل أخرى أجمل وأصغر ٠٠ وتركنى مع أطفالى الأربعة فى مقابل نفقة هزيلة لا تكاد تكفينا لخمسة أيام كل شهر ٠٠ وليس فى وسعى أن أوفر لابنى الأكبر دروسا خصوصية برغم أنه فى السنة السادسة الابتدائية !

لاحظت عفاف الجالسة فى مواجهة حكمت أنها على وشك الانفجار مرة أخرى نتيجة للقلق الحارق الذى اجتاحها فى الأيام الأخيرة ، وليس بسبب الأم البائسة القابعة امامها ٠ أسرعت عفاف الى التهدئة برغم جرح كلمات الأم لها فهى مدرسة فصل ابنهـا ، قالت لها :

– ومن قال لك ان المدرسة تشـجع الدروس الخصوصية فى البيوت ! ان ابنك لم يلتفت للشرح ولو لخمس دقائق متصلة !! كل ما نريد هو الالتفات والاصغاء !

كانت الأم على وشك أن تولول :

– يا حسرتى عليه ٠٠ انه معذور وهو يعيش فى بيت بائس !

لم تستطع حكمت أن تكبت انفجارها :

– وماذا تتوقعين أن نفعل فى هذه المأساة ؟! ليس لدينـا ما نقدمه لك سوى اخلاص مدرسينا فى الفصل !

فى تلك الأثناء دخلت معالى بنظرات زائغة تتدفق بالقلق الذى لم يخف على حكمت التى بادرتها بالسؤال :

– هل مررت علينا بالصدفة أم انك جئت خصيصا ؟!

جلست معالى الى جوار أمها وصدرها يعلو ويهبط :

– أرجو أن تكون تحرياتى خاطئة !! فقـد اثبتت كلها صحة توقعاتك يا طنط !

نسيت حكمت الأم الجالسة امامها بعد أن ملأت صورة وائل مخيلتها وهى تتساءل فى لهفة :

– هل انتهيت تماما من كل تحرياتك ولم يعد هناك أدنى شك ؟!

ـ كل الدلائل لا تترك ثغرة فى المعلومات التى جمعتها اليوم من النادى !

حاولت عفاف أن تشعر الأم التى كانت تتابع الحوار فى شغف أبله بأن وجودها لم يعد غير ذى موضوع :

ـ على كل حال ٠٠ سأبذل ما فى وسعى كى أرتفع بمستوى ابنك فى الفصل !

نهضت الأم فى تثاقل وهى تمد يدها لحكمت ثم لعفاف :

ـ على كل حال ٠٠ متشكرة ٠٠ كل شىء قسمة ونصيب !

وبخروجها بردائها الأسود خرجت الكآبة ليحل محلها قلق قاتل خرج مع تساؤل حكمت كالقذيفة التى لا تعرف هدفا لها :

ـ اذن ٠٠ لم يقتصر الأمر على السجائر !! امتد ليشمل الأقراص المخدرة ؟! ما هذا الكابوس الذى يكاد يطحننى ؟!

عادت عفاف الى محاولاتها لتهدئة لا نفع فيها :

ـ كل مشكلة ولها حل !!

ـ أى حل يا عفاف ؟! وهو الذى رفض كل محاولاتنا فى مجرد فتح الموضوع معه لدرجة أننى لم أعد أراه فى الأسبوع الأخير ! يأتى بعد منتصف الليل ٠٠ وفى الصباح أترك البيت قبل أن يستيقظ من نومه الخامل الغريب ! لأول مرة فى حياتى لا أعرف ماذا أفعل لانقاذ ابنى ٠٠ وأنا التى ربيت أبناء الآخرين ٠٠ جيلا بعد جيل !

ـ ألم يصرح بشىء على الاطلاق بخصوص هذا الموضوع ؟!

ـ كل ما قاله انه اقسم بحيـــاة ابيه انه لم يتنــاول هـــذه الأقراص !

تناولت عفاف الخيط فى بعض من الارتياح :

ـ وانا لا اعتقد انه يقسم بحياة أبيــه الذى يحبــه ويحترمه ·· كذبا !!

ثم نظرت الى ابنتها وكأنها تستجوبها :

ـ هل رأيت شيئا بنفسك يا معالى ·· أم أن الأمر مجــرد اقوال من الآخرين أو تخمينات منك ؟!

ـ قال الأصدقاء فى النادى انه لم يعد يفترق عن هناء التى عزلته تماما عنهم بحيث لم يعد يتردد على النادى ·· وصداقة من هذا النوع لابد أن تنتهى بادمان الطرفين ·· طالما أن احدهما مدمن ·· وهناك أمثلة متعددة فى النادى من هذا النوع !

تمنت حكمت ان يكون كلام معــالى بدافع الغيـرة ، فلم تزل تتعلق بخيط الأمل الواهى :

ـ انها غلطتك أنت يا معالى عندما تركته لقمة سائغة لهـذه الفتاة المريبة الغامضة !

تأملت معالى الســجادة البنية المهترئة تحت حذائهــا الأسود المترب وقالت بصوت خفيض :

ـ انت لا تعلمين يا طنط أن حرصى عليه قد أدى الى اهانته لى فى الفترة الأخيرة اهانات متصاعدة !! ومع ذلك فان تحرياتى هذه أكبر دليل عملى على حرصى عليه !!

ارتعش الجانب الأيسر من شفة حكمت السفلى :

– آسفة يا معالى .. لم اقصد جرحك !! انت لا تعرفين ما هو قلب الأم ؟! غدا تتزوجين وتنجبين باذن الله وتلتمسين لى العذر !!

احتارت معالى فى اختيار كلمات مناسبة لكن أمها أسعفتها :

– اعزاز معــالى لوائل لا يقل عن اعــزازنا له ان لم يزد !! وباذن الله ستأتى العواقب سليمة اذا نجحنــا فى حسم الموضــوع وبأسرع ما يمكن !

– هذه هى المشكلة فعلا يا عفاف !! لكن كيف الدخول اليهــا وقد أغلق وائل كل المنافذ اليه !

– لا يمكن أن يتحول الدم الى ماء !! ولابد ان يشترك ابراهيم معنا فى هذه القضية .. فهو الذى يمده بالمال اللازم !!

– لن يعود ابراهيم من اليونان قبل أسبوع ! والوقت لا يمر فى صالحنا !! لابد من عمل سريع قبل أن يجرفه التيار تماما !

– لن نعدم الحيلة اذا فكرنا سويا !

انتقــل الاصرار من شفتى عفــاف الى عينى حكمت التى لم تتعود أن يضيع من يدها زمام المبادرة من قبل ! كانت تفكر فى شىء على وشك النطق به لكن دقات الجرس وهدير اقدام التلاميذ على الممرات ودرجــات السلم صوب البوابة الحديدية بانتهــاء اليوم الدراسى جعلها ترجىء الحديث حتى ركبن السيارة وتبادلن مختلف الآراء حتى بلغن بيت عفاف التى هبطت مع ابنتها على ميعاد للقاء فى المساء ، ثم انطلقت حكمت وقد انتابتها قشعريرة الوحــدة فى السيارة التى خلت منهما . هربت من طوفان مشاعرها المتلاطمة الهادرة بالاسراع الى بيتها حيث كانت المفاجأة التى أوحت اليهــا باقتراب ساعة الحسم . وجدت ابنها قد انتهى من تناول افطــاره

مما يدل على أنه لم يستيقظ الا فى الثانية ظهرا على أقل تقـدير ! سرعان ما أطفأ سيجارة فى صحن أمامه فسرت لهذه الحركة التى دلت على أنه لايزال يعمل لها حسابا ! قبلته فى وجنتـه وجلست امامه وقد وضعت ابتسامة سعيدة على وجهها :

ـ لم تعد تحكى لماما حبيبتك شيئا عن دراستك فى الكلية ؟!

ـ كل شيء على مايرام ٠٠ فأنا أسـهر معظم الليل أسـتذكر محاضراتى مع الأوائل من زملائى !!

ابتلعت حكمت غصة شائكة اعترضت حلقها ٠ لم تكن تتصور ان يكذب ابنها بهذه البساطة وهو الذى نشأ على الصدق مهما كان ثمنه ، لكنها قررت تجنب العاصفة بسؤال حرج :

ـ ولماذا لم تعد تستذكر محاضراتك مع معالى ؟!

ـ شعرت أن من مصلحتى أن أستقل بنفسى !! فلا يعقل أن تفرض وصايتها على الى ما لا نهاية ! لم أعد أحتمل هذا الوضع بعد أن أدركت أن أصدقاء النادى وزملاء الكلية يظنون أن قرارى فى يدها هى ٠٠ فى أى موضوع ٠٠ مهما كان تافها ٠٠ سواء أكان ذهابا فى رحلة أو حضورا فى حفلة أو أى نشاط آخر ؟!

ـ ربما أساءت معالى التعبير عن مشاعرها تجاهك !! لـكن عذرها أنها فعلت هذا بدافع حبها لك وخوفها عليك !!

كانت الكلمة الأخيرة بمثابة القشة التى قصمت ظهر البعير ! ضرب وائل مفرش المائدة بقبضة يده ، وتخلى عن قرض أظافره :

ـ فلتخف على نفسها أولا ! الا اذا أصرت على القيام بـدور الرجل الحريص على مستقبل فتاة مدللة مثلى !!

ندمت حكمت على استخدام كلمة « الخوف » التى ضربت على وتر مشدود داخله ، فدفعها الحرج والتوتر الى أن تقول دون تفكير :

– ربما أسأت أنا التعبير أيضا !! لكننى كأم لابد أن أصارحك ·· وأظن أن من حقى أن أخاف عليك ·· فأنت ابنى وحيدى ·· وواجب على أن أنبهك الى الخطر المحدق بك !

– يبدو أن العيون لا تزال تحاصرنى وتفرض وصايتها على ؟!

لم تسلم قيادها لأى نوع من الحساسية حتى لا تترك له زمام المبادرة :

– ليس المهم من الذى أوصل هذه الحقائق الى ·· ولكن المهم كيف نواجه هذه الحقائق قبل أن تستفحل !! وتتحول الى خطر على مستقبلك نفسه !

– وما هى هذه الحقائق التى تنوى الاستفحال وتدمير مستقبلى ؟!

لم تعبأ برنة الوقاحة الجديدة الكامنة عند قاع كلماته ، فلابد من المواجهة الآن والا ضاع من يديها الى الأبد :

– بصراحة يا وائل وبدون غضب ·· يجب أن تعترف لنفسك قبل أن تعترف لأى انسان آخر بأنك لم تعد مواظبا على حضور محاضراتك ·· كما أنك تصادق فتاة مدمنة للأقراص المخدرة التى لابد أن تنتقل عدواها اليك !

توقفت حكمت لالتقاط أنفاسها اللاهثة برغم كلماتها القليلة ، لكنها كانت مشحونة بكل الطاقات المتفجرة التى انتقلت الى وائل فنهض منتفضا :

ـ مع كل احترامى لخوفك على مستقبلى يا ماما ٠٠ فاننى لن اترك حياتى تحت رحمة ألسنة السوء والحقد والكذب والافتراء ٠٠ عن اذنك !

ترك قاعـة الطعام هاربا الى غرفته التى ترك بابهـا نصف مفتوح ٠ جلس الى مكتبه الصغير الملاصق لفراشه وبلا وعى ظلت يده تقلب صفحات كتاب ضخم أمامه دون أن تقع عيناه على كلمـة واحدة ! حتى أمه أصبحت تتـكلم عن الأقراص المخـدرة بهـذا اليقين ؟! صحيح أن هنـاء اعترفت له بالأمس فقط بادمانها لهـذه الأقراص لكنها وعدته بالتخلص منها طالما أنه واقف بجوارها يشد من أزرهـا ويملأ فراغ حياتها ! فقـد أصبح طوق النجـاة الذى سيجذبها من بين أمواج الجحيم وبراثنه ، وسيثبت لأمه فى الوقت نفسه أنه ليس قادرا على مقاومة الادمان فحسب ، بل لديه القدرة على شفاء الآخرين منه وفى مقدمتهم هناء ، كما سيثبت لمعالى أنه رجل ذو قرار حاسم وارادة حديدية ، ليس بالنسبة لنفسه ومستقبله فقط بل بالنسبة لجميع الذين يحبهم ويحرص عليهم وفى مقـدمتهم هناء التى على وشك ألا تبخل عليه بشىء ! فقد ألمحت اليه فى لقاء الأمس أن جلسة العربة فى الأحياء النائية لم تعد تكفى عاشقين مثلهما ، وأنها لا تحب أن تبدو بخيلة فى مواجهة كرمه المتدفق عليها من جيبه برغم مقاومتها الشديدة لمساعداته المادية التى تعتبرهـا ديونا مؤجلة ستردها بمجرد حصولها على مبلغ كبير من أبيها ، اذ أنها تفكر مليا فى رفع دعوى نفقة عليه ، لكنه أجبرها على أن تعده بعدم اتخاذ هذه الخطوة ضد أبيها طالما أن اباه يمده بمال وفيـر لا يعرف متى وأين وكيف ينفقه ؟! وقد نجحت هى فى تحويل هـذا المال الى منبع سعادة بعد أن كان مصدر حيرة له !

انتبه وسط خواطره الشاردة الى شبح أمه واقفا بحذاء فتحة الباب والقلق يسيل من عينيها :

ـ لابد أن اصارحك بكل ما أعرفه عن هناء حتى اخلص ضميرى الذى حرمنى من النوم فى الأيام الأخيرة !

تذكر وائل جملة هناء الأثيرة : « لا أسمح لأحد بأن يدس أنفه فى حياتى الخاصة » وكانت أجمل عبارة سمعها منها بعد أن ترك حياته لكل من هب ودب ليفعل بها ما يشاء ! لم تعبأ الأم بصمته وتجنبه لنظراتها فقالت بصوت واضح مرتفع ، وهو مشغول بقرض اظافره :

ـ لا أريد منك ردا ! كل ما أطلبه منك أن تسمع ما سأقوله !! فأمك ليست نائمة على أذنيها !! هناء هذه التى سلبتك لبك ليس لها بيت ·· فهى مطرودة من بيت أبيها ومن بيت أمها !! وأخوها من ذوى السوابق ولايزال بالسجن بعد أن صدم رجلا صدمة قضت عليه فى الحال ·· واذا كانت تغريك بالزواج فهى أكبر منك فى السن لرسوبها المتكرر فى الكلية ·· والجمال يا بنى جمال الأخلاق والشخصية قبل أن يكون جمال الوجه والجسد !! فى أيامى لم أر صديقة أو زميلة تتجاسر وتدخن ·· أما هناء هذه فلديها القدرة ولا أقول الفجور على ادمان المخدرات بالاضافة الى السجائر !! لم أكن اتصور أن يأتى زمن مجنون مثل هذا أشهد فيه ما يجرى من كوارث ومصائب ! قلبى يحدثنى أنها ستجرك معها الى القاع ! فانت لا تعرف قلب الأم !

صمتت لتلتقط انفاسها فنهض وائل ليواجهها دون أن ينظر فى عينيها :

ـ أرجو يا ماما أن تعلمى أن ابنك الطفل المدلل قد أصبح رجلا ناضجا مسئولا عن نفسه أولا وأخيرا ·· ولن يترك قياده لجنس امرأة أو رجل !! والنجاح فى نهاية السنة هو الفيصل بينى وبينكم ! وسأثبت لكم قدرتى على النبوغ وليس التفوق فقط ·· وبدون معالى !

ـ أسمع كلامك اصدقك ·· أشوف أمورك أتعجب !

استدارت الأم واختفى شبحها فى حين عاد وائل الى جلسته وتقليب صفحات الكتاب الضخم أمامه فلم ير سوى وجه هناء بعينيها الرماديتين الواسعتين الحزينتين ، وجدائلها الفضية اللامعة ، وشفتيها الباهتتين البضتين ، ومشيتها المهتزة كأطياف الخريف الناعس ، وقوامها الرقيق السارى كالحلم المتجسد فى كرات نهديها وردفيها البضة · عشق فيها كل شىء ، حتى الهالات السوداء المحيطة بعينيها المائلتين الى الحمرة الباهتة ، والعصبية التى تحاول أن تخفيها فى بعض حركاتها الرقيقة المنطلقة مع دخان سيجارتها المتدفق الشفاف !

لم يضايقه أن تفتح أمه الموضوع الشائك معه · فقد كانت هناك مقدمات عديدة ومتصاعدة تؤكد أنها ستعود اليه أكثر من مرة ، لكن ما ضايقه فعلا أنها اختارت هذا اليوم بالذات دون قصد منها بالطبع ، ودون أن تدرى أنه اليوم الذى حددته هناء لوائل ليزورها لأول مرة فى شقتها بعد أن سئمت لقاء السيارة تحت رحمة عيون المارة المتلصصة ! فمنذ أن صارحته باصرارها على قرارها هذا ، وأمواج جديدة من القلق والحيرة والاثارة والخوف تجتاح شواطئه وتغمر فراشه مكتسحة أمامها فلول النعاس التى داعبت جفونه فى خجل وحياء ، فقضى الليل كله فى انتظار وترقب وتوجس حتى زاره النوم مع أول شعاع للفجر ، لكنه لم يكن عميقا كعادته منذ أن عشق هناء التى أنار طيفها لياليه !

لم يعرف ماذا يفعل معها عندما يغلق الباب وينفرد بها فى الشقة ؟ ! برغم كل الحب الذى توطدت أواصره بينهما فى لقاءات العربة ! ماذا يمكن أن يحدث لو بلغت معه نهاية المطاف ؟! ان كل كلماتها وتلميحاتها تحمل كل معانى الترحيب به ؟! لكن لأى مدى ؟!

هذا هو الشيء الوحيد الذى لم يتأكد منه !! كذلك فان خبرته فى دنيا العشق والغرام لم تتجاوز حدود اللمسات والآهات والقبلات والأحضان سواء مع معالى أو مع هناء برغم أنه تذوق على يديهـا ما لم تسمح له به معالى !! هل هناء عذراء أم انها خاضت قبـله تجربة كاملة أو أكثر ؟: الخ عليه هذا التساؤل عنـد كل لقـاء لكنه سرعان ما كان يجفل ثم ينساه فى لحظـات تالية مع اللمسـات والقبلات ! وفى عودته المنتشية الى بيته كان يؤنب نفسـه الأمارة بهذا التساؤل السخيف الذى ليس من حقه بأية حال من الأحوال ، فهى لم تطلب منه وعدا بالزواج ، ولم تشترط عليه شرطا واحـدا بل منحته السعادة والنشوة دون مقابل ! سوى ذلك المقابل المادى الذى قبلته على مضض ، هذا اذا اعتبره مقابلا ! ولعل هذا التساؤل راجع الى أنه فكر فعلا فى الزواج منها بعد تخرجه بعـد أن أدرك حقيقة حبه الجنونى لها ! فلن يجد أروع وأبهى منها ! ولعل هـذا هو السبب فى اصراره على أن يبلغ بها بر الأمان بعيدا عن الادمان الذى وقعت فى براثنه نتيجة لظروف أسرتها المأسوية !

لكن بصرف النظر عن كل هذه الاعتبارات وغيرها ، فلابد أن يعترف أمام نفسه أنه لم يخض تجربة كاملة من قبل ، وأنه مقبـل على امتحان حرج بأى شكل من الأشكال ! من هنا كان قلقه وحيرته واثارته وخوفه مهما ادعى غير ذلك ، ومهما تظاهر بصموده وثباته فى مواجهة أمه ! بل العجيب أنه كلما اقترب ميعاد اللقاء ، تضاعف قلقه وخوفه برغم محاولاته المستميتة فى اقناع نفسه بتركها على سجيتها لتتصرف تبعا لتطورات الموقف الجديد المثير !

تشاغل بتقليب صفحات الكتاب الضخم الذى امتزج سـواد سطوره ببياض صفحاته ٠ نظر الى ساعة يده فوجدها تقترب من الخامسه ، أى أنه لم يتبق أكثر من ساعتين على اللقاء التـاريخى! نسى أمه وكل القضايا التى اثارتها ولم يتبق فى وجدانه سوى هناء

التى تربعت على عرشه ! لكن القلق اللعين تحالف مع الأرق الكريه لقتل الرغبة داخله فى وقت هو فى أشد الحاجة فيه لها ! هل اعتاد لقاءات العربة وأحبها لأنه لا يستطيع غيرها ؟! هل كان أمله فى لقاء الشقة مجرد حلم جميل راوده لكنه يمكن أن يتحول الى كابوس اذا تحقق ؟! هل يمكن أن تدعوه هناء الى شقتها بهذه البساطة العذبة فى حين يظل هو يضرب أخماسه فى أسداسه بلا طائل ؟! أصبح القلق صديقه المفروض عليه أو ضيفه الثقيل منذ أن عرف هناء ، فهل هى السبب ؟! يالفرحة معالى لو علمت ما ينتـــابه الآن من مشاعر مختلطة ! لكن الربط بين القلق وهناء ظلم فادح لها وهى التى منحته من لحظات النشوة الخلابة المبهرة ما لم يحلم به من قبل ؟!

أدرك أن جلسته الى مكتبه وتقليبه لصفحات الكتــاب عبث لا معنى له فنهض وأغلق الباب ثم ذهب الى فراشه ليســترخى فى بيجامته الصوفية ويحدق فى السقف الأبيض الذى تتراقص عليه بعض ظلال شجرة سامقة مدت فروعها لاحتضان شمس ديسمبر بكل حنوها وخجلها ! آه لو استطاع أن يطرد القلق وأن يغفو ولو لمدة ساعة حتى يجدد حيويته التى لن يستطيع لقاء هناء بدونها ؟! أنه امتحان أصعب ألف مرة من امتحان آخر السنة ! وعليه أن ينجح فيه بأى ثمن ، كى يثبت للجميع وفى مقدمتهم معالى أنه الفتى الذى لا تستطيع فاتنة مثل هناء مقاومة سحره وجاذبيته وفحولته !

نهض ليذرع الغرفة جيئة وذهابا ! شغل عينيــــه بمتـابعة العربات المنطلقة بحذاء الترعة التى تطل الفيلا عليها ، وبائع برتقال يصيح مناديا على فاكهته وضاربا حماره بعصاه ، وطابور من الأوز السابح على سطح الترعة فى صفاء تمنى أن يسرى داخله لكنه ابتسم عندما ضبط نفسه متلبسا بحسد طابور الأوز الأبيض

الجميل ! عاد يذرع الغرفة من الجدار للجدار محاولا تذكر اللمسات المثيرة فى لقاءات السيارة واستحضار اللمحات المغرية التى لم تشبع عيناه منها ، لكن دماء الرغبـــة السـاخنة لم تتـــدفق فى عروقه ، برغم أن خاطرا عابرا منها كان كفيلا من قبل بتغطية جلده كله بقشعريرة كهربية وحنين قاتل للقاء هناء ! هل هو الخوف من أول تجربة كاملة ؟! ومن قال انها ستكون تجربة كاملة ؟! ان عقله الذى لا يكف عن التفكير والتخبط يوشك أن يصاب بلوثة من نوع غريب ! ولا مهرب له سوى أن يفعل شيئا مفيدا ! بدلا من أظافره التى يقرضها فى جنون !

تأمل وجهه فى المرآة المواجهة للفراش فرأى شعيرات ذقنـه وقد نبتت برغم حلاقته لها بالأمس . فتح الباب وانطلق الى الحمام. كانت أمه فى غرفة المكتب تتحدث فى التليفون بصوت عال لكنه لم يعبأ بها وشرع فى تغطية ذقنه بسحب الصابون الكثيف المعطر ، وانهمك فى عملية الحلاقة حتى غدا ملمسه كالحرير برغم اصابته بجرح خفيف.ملأ البانيو بمياه شحنت الحمام المغلق بأبخرتها وألقى بجسده فيها . سرى ارتخاء فى أعصابه المشدودة لكن الرغبة لم تحل محله . عاد الى قرض اظافره ولم يراوده احساس النعاس كما يفعل فى كل مرة تحاصر فيها المياه الساخنة جسده من كل جانب !

انتهى من حمامه وهو يقاوم موجة عاتية من الشرود اطاحت بكل طاقته على التفكير المركز . ترك نفسه لها فى استرخائه مرة أخرى فى فراشه وانهماكه فى قرض اظـافره حتى اقترب ميعـاد الزيارة التاريخية فقفز من فراشه ، وكل همه أن يرتدى أبهى ماعنده حتى يبدو فى نظر هناء العاشق السـاحر الذى تمنته دائمـــا ! استعرض هيئته فى المرآة فاستعاد بعض الطمأنينة الهاربة : الشعر

الأسود الفاحم اللامع الناعم ، والعينان السوداوان لكنهما فقدتا وميضهما النفاذ ، والبشرة البيضاء لكن حمرتها كانت على وشك التلاشى ، والأنف المشرئب الى أعلى ، والشفتان المائلتان الى الغلظة بدون لونهما الوردى ، لكن القوام السمهرى بدا مشدودا داخل الحلة الصوفية الزرقاء ، والقميص الحريرى الأبيض ، ورباط العنق الأحمر ، والحذاء الأسود الذى يعكس لمعانه ضلفة صوان الملابس نصف المفتوحة ٠

رش وجهه وعنقه وأغرق منديله بالعطر الذى تعشقه معبودته٠ لم يشأ أن يتجاهل أمه فذهب اليها دون أن يحدث صوتا لوقع أقدامه كى يخبرها بذهابه الى زملائه للاستذكار فوجدها لاتزال منهمكة فى مكالمتها التليفونية ولكن بصوت لا يكاد يسمعه هذه المرة ٠ اعتبرها حجة وفرت عليه الكذب وانسحب هابطا على السلم الحلزونى وخارجا الى حيث ألقى بنفسه فى سيارته ، ومع محركها الذى دار تعالت دقات قلبه التى تجاهلها بالانطلاق بأقصى سرعته ، وبصرير الاطارات الحاد على شارع الهرم ! انصبت على رأسه لعنات بعض قادة السيارات وهو ينزلق انزلاقا متهورا فيما بينهم ، ولا يراعى اشارات المرور الحمراء ورقم سيارته الذى التقطه اكثر من شرطى مرور حتى عبر نفق الهرم صوب كوبرى الجيزة فاذ به عند نهايته يصطدم بسيارة أجرة كانت تخترق ميدان الروضة وهبط السائق ليلعن اليوم الذى رآه فيه واللحظة التى قابله فيها ، وهو يعاين الخسائر فاذ بخسائر وائل أفدح ، فقد تحطم الكشاف الأيسر الكبير مع زاوية السيارة التى انبعجت الى الداخل فى حين لم تصب سيارة الأجرة الا بخدوش بسيطة فوق حاجز التصادم المعدنى ٠ صرخ السائق بنظرات جاحظة ذاهلة مطالبا بتعويض من وائل الذى انتابته رعشة خفيفة واحباط شديد شجع السائق على المزيد من الصراخ والامساك بياقة حلته الأنيقة ٠ التف أولاد الحلال

حولهما ، وتعطلت حركة المرور ، وهرع الشرطى طالبا رخصتيهما ، فاذ بالسائق يتراجع ويعلن عفوه عنه برغم أنها غلطته ، بينمـا انحاز معظم المارة الى هذا الشاب اللطيف الرقيق الذى لم يفتح فمه سوى بألفاظ غير مفهومة ، والذى أصيب فى سيارته بمعظم الخسائر ! نظر الشرطى فى ريبة الى وجه السائق وصاح :

– اننى أعرف صنفكم ككف يدى ! فأنتم لا تكفون عن تعاطى السموم التى لابد أن تودى بكم الى ستين داهية ! تطالب بتعويض من الأفندى الذى هشمت عربته ! رخصتك يا سيد ! ولحسن حظك فان القسم قريب من هنا !

بدأ السائق فى اسـتعطاف الشرطى وسـط دهشة الملتفين حولهم وتعليقاتهم : الصلح خير !! مادام الطرفان لا يريدان شيئا فليذهب كل منهما الى حال سبيله !!٠ القسم لن يحل ولن يربط !! المحضر مجرد قطعة ورق مصيرها سلة المهملات !!! لن ينـال أحدهما هناك حقا أو باطلا !! المكتوب على الجبين لازم تشـوفه العين !! ما حدث كان لابد أن يحدث !! ساعة القدر يعمى البصر ٠

فجأة انتحى السائق جانبا بالشرطى الذى أعلن اصراره على حل المشكلة فى القسم حتى يعرف الجميع قيمة القسم ودوره فى حسم الأمور ٠ دار حديث هامس بينهما ووائل يراقبهما مع أعضاء الحلقة الملتفة حولهم ٠ نظر الشرطى الى وائل وسأله :

– هل تريد أن تذهب الى القسم ؟!

تمتم وائل بألفاظ غير واضحة لم يسمع منها غير :

– لا ٠٠

صاح بعض المتفرجين !! :

– اذن ٠٠ توكل على الله !! ويا دار ما دخلك شر !!

ركب وائل سيارته ، وأدار المحرك فأفسح له الواقفون طريقا ولسان بعضهم يقول :

ـ مع السلامة !! كفاك الله شر الطريق !!

خرج وائل من المعمعان وهو يتنفس الصعداء فى طريقه الى بيت هناء التى نسيهـا لأول مرة فى ذلك اليـوم ما يزيد على ربع ساعة ! لم يهتم لما وقع لسيارته ففى مقدرة أبيه أن يشترى له أخرى جديدة ، لكن ما وقع له أضاف الاحبـاط والاكتئـاب الى التوتر والقلق ! وعليه الآن أن يجهز نفسه للقاء بعـد التخلص من كـل المشاعر المتلاطمة التى اجتاحته منذ أمس ! تنفس الصعداء ونظـر الى المرآة أمامه فوجد وجهه مقطبا · حاول الابتسام لكنه عاد الى الجهامة التى أوحت اليه بالاصرار والصرامة · كان على وشك أن يحتك بسيارة منطلقة الى جواره لـــكن الله ســتر ، فى حين لوح صاحبها بذراعه خلف الزجاج وتفوه بألفاظ لم تصل الى أسماع وائل ولم يعبأ بتفسيرها ! كان منهمكا فى قرض أظافره !

أخيرا بدت العمارة الشاهقة التى تطل على فرع النيل الذى يفصل بين المنيل ومجرى العيون · توقف الى جوار الكورنيش وهو يسترجع رقمى الدور والشقة حتى لا يقرع الباب الخطأ · دق قلبه فى عنف وعبر ذهنه خاطر كوميض البرق أوحى اليه بشد الرحال الى أمه مرة أخرى برغم اللحظة التى انتظرها طويلا على جمرات الشوق والرغبة ، وبرغم أنه لا يعلم ما الذى سيجرى على وجــه التحديد ، فربما جلس معها نفس جلساتهما فى العربة ؟!!

طار به المصعد حتى الطابق العاشر واذ به أمام أربعة أبواب مغلقة فى صمت مطبق لم يجرؤ ضجيج الشارع وصخب الحى على بلوغه · دار بعينين زائغتين وقلب واجف على الأرقام ، وصوت صامت داخله يلح عليه : ها أنت أمام التجربة الأولى التى خاضها

كثيرون قبلك بزمن بعيد ولم يعوقك عنهـا سوى ارتباطك السـاذج والأحمق بمعالى !! لكن هل تمر بها بنجاح ؟! لابد ! وخاصة أنك بلغت سن النضج وتملك كل ما تعشقه هناء اذا كانت عازمة على الترحيب بك حتى نهاية المطاف ؟! واه وألف اه من نهاية المطاف هذه !!

ضغط على زر الجرس فصـدح بموسيقاه وسرعان ما فتـح الباب الذى افتر ثغره عن هناء فى ثوب أحمر ينساب على جسدها حتى ارتمت حوافيه على الأرضية الخشبية التى فقدت لمعانها ! مدت يدها باسمة وجذبتـه داخلا ليشجع نفسه ويقبلهـا قبلة سريعة فى شفتيها بمذاق العطر والدخان · قالت ضاحكة :

– اغلق الباب واسترح حتى أنهى مكالمة كنت قد بدأتها !

تركته واختفت فى غرفة جانبية · أغلق البـاب ثم بحث عن مقعد فلم يجد سوى حشايا من ألوان وأحجام مختلفة ملقـاة على بساط أحمر فاخر لـكنه مشبع بتراب مشع برطوبة ! مسح القاعة بعينيه فبدا المكان وكأن يد النظافة لم تمسه منذ زمن بعيد ! انبعج الورق الملصق على الحائط فى بعض المواضع وتمزق فى البعض الآخر ، فى حين ظهـرت بعض بصمات أصابع وخطوط متعرجة بالقلم الرصاص خلف بعض الحشـايا التى التفت حـول مائدة مستديرة منخفضة فقد زجاجها شفافيته ، وعليهـا ولاعة رخامية ضخمة وعلبـة سـجائر وبعض زجـاجات الأقراص ! أما السقف فقد تدلى منه مصباح وردى اللون ، صبغ القاعة بلونه الخـافت الحانى !

انتبه وائل لصوت هناء الذى علا فى التليفون ! أرهف السمع وهو يقرض أظافره فى حين أشـعل سيجارة استراح لسـحابات دخانها المتصاعد صوب المصباح الوردى :

ـ لن أطيل الحديث معك ! فلدى ضيف كما تعلم !٠٠٠٠٠٠٠ طبعا ٠٠ كما قلت لك ! وانا متأكدة من أن وزارة التموين لاتستطيع ان تفعل شيئا بدون وزارة الخزانة !

صمتت لتطلق ضحكة مشروخة أعقبها سعال طويل ثم :

ـ الله يسلمك !! باى ٠٠ باى !! الى اللقاء غدا !

أمسك وائل باحدى الزجاجات ليقرأ الورقة الملصقة عليهـا لكن كلمة واحدة لم تكتب عليها ! أسرع باعادتها على المائدة عندما رأى هناء واقفة بالباب مبتسمة ، ونفس طويل شفاف يتدفق من فمها وأنفها وضحكة خفيفة واشارة الى الزجاجات :

ـ ماذا كنت تقرأ ؟!

كانت كلماته مشبعة بقلقه وخوفه عليها :

ـ ألم تعدينى بالاقلاع عن هذه الأقراص ؟!

ـ انها مجرد أقراص اسبرين !

ـ لست أنا الذى تنطلى عليه مثل هذه الدعابات !

انسابت فى ردائها الأحمر لتجلس على حشية ملاصقة له :

ـ هل سنضيع الوقت الثمين فى الحديث المكرر المعـاد ؟! لم تقل لى ماذا تحب أن تشرب ؟!

ـ من ذلك الذى تواعدت معه على اللقاء غدا ؟!

احاطت كتفيه بيمناها فسرى مس الجنون فى عروقه :

ـ ألم نتفق على أن الغيرة احساس لا يتفق مع عصرنا ؟! على كل حال اطمئن ٠٠ فهو مجرد صديق مثل باقى الأصدقاء !! فأنا ليس لى سوى حبيب واحد وأنت تعرفه جيدا !!

أسبلت عينيها فلم يملك سوى أن يحتضنها بعنف متعمد ٠ ألقت برأسها فى حجره فانهال على وجهها بقبلات أنسته الى حين قلقه وتوتره وكآبته واحباطه ٠ شعر بأن الجاكتة تمنع التصاقه الكامل بصدرها فخلعها وقبل أن يلقى بها بدا وكأنه تذكر شيئا ! أخرج من جيبها مظروفا سميكا محاطا بخيط من المطاط الرفيع ! وضعه على المائدة وهى تتابعه بعينيها :

ـ قبل أن أنسى !

مدت يدها وأمسكت بالمظروف :

ـ ألم أقل لك ٠٠

قبض على يدها بعنف أشد وقاطعها :

ـ لن أسمح لك بكلمة واحدة !

تظاهرت بالخوف وشهقة عابرة من فمها المفتوح :

ـ اذن ٠٠ عدنى بأنها ستكون سلفة حتى أحصل على أموالى من بابا !

سحب يدها بعيدا عن المظروف وانهال على عينيها وأنفها وشفتيها وعنقها بشفتين حرص على اشتعالهما ، فاستسلمت له تماما وحلت الآهات محل الكلمات :

ـ لن أبخل عليك بشىء !! فأنت تستحق كل شىء !

شعر بمد الرغبة قادما بأمواجه الهادرة من خط انطباق الافق ! لكنه انحسر بمجرد أن ارتمت أمامه على البساط الأحمر ونداء الأنثى يسيل من عينيها الرماديتين الواسعتين الحزينتين ، وشفتيها الباهتتين البضتين ، ونهديها المتكورين فوق صدرها برغم الهزال الذى أصابهما ، وجدائلها الفضية المتناثرة على البساط ٠ لوحة جميلة طاغية مثيرة لكنها مخيفة ! خيل له أن حمرة عينيها

ووجنتيها أوشكت على أن تمتـزج بحمرة البساط · اسـتدارت لتطفىء السيجارة فى المنفضة ، فانحسر الثوب منحدرا من أعلى ركبتيها وساقطا بحوافيه عند أعلى الفخذين فاذا بها لا ترتدى شيئا أسفله وقد مدت ذراعيها لاستقباله !

تحول الخوف الخفى الى رعب دفين جعله يلعن كل شىء ! هل امتزج الحلم بالواقع حتى تلاشت الحدود بين هذا وذاك ؟! لم يكن يتصور أبدا أن الدخول الى جنتها سيكون بهذا اليسر المرعب !! هل ستكون التجربة الأولى التى عاش طول حياته على أمل وقوعهـا مع معالى بعد الزواج ، هذه الليلة وبهـــذه البساطة ومع هـــذه المستلقية على البساط ؟! هل تحبه الى هذا الحد أم أنها سهلة الى هذا الحد ؟! لماذا تجتاحه هذه الخواطر المحمومة وتنحسر أمامهـا الرغبة التى طالما أغرقته فى وحدته أو فى لقاءات السيارة ؟ أين تلك الرغبة الملعونة التى ألهبت ظهره بسياط من نار ؟! لماذا تصر على خذلانه فى تلك اللحظة التى اعتبرها فاصلة وتاريخية ؟! أرخت ذراعيها وأشعلت سيجارة جديدة !

لسعته هذه الخواطر كهزيم الرعد ووميض البرق وهو ينظر اليها وقد أمسك بيدها يقبلها · أطلقت ضحكة مشروخة :

ـ ما هـــذه الرومانسـية التى حلت عليك ؟! أين العـاشق الحارق الخارق الذى لم يعرف وجهه حمرة الخجل ؟! هل سنقضى الليلة فى تبادل النظرات ؟!

لاحظ وائل نشوتها الطاغية الغريبة ، ونظراتها التى أصبحت زائغة ، ولسانها الذى أصابه ثقـل أبطأ من كلماتهـا وحروفهـا ، وحركاتها التى تبلدت ، ويدها الأخرى التى ارتعشت بالسيجارة التى أسرعت الى اطفائها بعد نفسين أو ثلاثة ! أما الحمرة فلم تقتصر على عينيهـا ووجنتيها بل امتدت لتكسـو وجههـا كله ·

واصلت الحديث الغريب بجرأة غير معتادة وبألفاظ لم تتفوه بهـا من قبل كانت كفيلة بالقضاء على أية احتمالات متوقعة للرغبة . ازداد لسانها ثقلا :

– هيا يا روح ماما !! لا تخف ! لن أعضك !!

ذهل وائل لهذه السوقية التى لم يتوقعها أبدا من معبودته ! لم يدر ماذا يفعل بعد أن امتزج الحرج بالحيرة بالذهول بالاحباط وهى فى هذه الحالة من الشرود ؟! جلست بظهر مقوس وقالت وهى تمد يدها الى احدى الزجاجات لتفتحها وتخرج منها قرصا قدمته اليه :

– آسفة اذا كان لسانى قد أفلت ببعض الألفاظ غير اللائقة !! لكن عذرى أن حبى لك يكاد أن يحرقنى بلهيبه !! خذ هذا القرص وستجد نفسك سيد الرجال !! لا أحب أن أراك هكذا !

تردد فى الامســاك بالقرص لكنهـا دسته فى يده ثم نهضت وكأنها تترنح لتحضر له كوب ماء ! شعر برغبة شديدة فى العودة الى بيته لكن الارادة كانت قد تسللت من بين أصابعه ولسان حاله يقول : قرص واحد لن يقتله ! وليخض التجربة حتى نهاية المطاف ! فهو لم يعد قاصرا ، وعليه أن يقهر هـذا الخوف اللعين !. فمن المستحيل أن يتحول فى نظرها الى أضحوكة !! وليطرد الخوف والقلق والتردد حتى تعود الرغبة أشد ما تكون !

تناول القرص بقليل من الماء وهى جالسة عند أقدامه ! تتأمله بابتسامة عذبة مغرية ! بدأت مشاعر الاحباط واليأس والاكتئـاب فى الانحسار أمام موجات من التبلد والحـذر جرفتـه فوق أعلى درجات السعادة التى لم يذق مثلهـا من قبل ، ســعادة ممزوجة بالتعالى والعظمة والتحليق فوق الآخـرين من البشر البؤســاء ،

وتضاؤل كل المشاكل ، وعودة الثقة العارمة الى نفسه ، ثقة اكدت له انه سيد الرجال طرا ، وأنه من حظ هـذه الفاتنة الجالسة عنـد قدميـه أن تقع فى غرامه ، فهو قادر على دعوتها الى مأدبة شهية من امتع الملذات والشهوات برغم انها تجربته الأولى ! فهذه الأمور ليست فى حاجة الى تدريب طويل وممارسة سابقة !! والا فمن علم الطيور بين أفنان الشجر والقطط والكلاب فى الشوارع ممارسة الحب ؟! انه نداء الغريزة والمتعة واللذة الذى يجب أن يخفت الى جواره أى نداء آخر !!

ظلت جالسة عنـد قدميـه ومتشبثة بركبتيه ، وعينـاها الحمراوان تتأملان وجهه الباسم ! كانت نشوته غامرة مع عودة النبض الى اعصابه التى تاقت الى الوصال ! اتسعت ابتسامتها وهى ترى الحمرة تزحف على بياض عينيه ثم تكسو وجهه ! تأكدت أن سحر القرص يسرى بمسه فى كل انحائه وحناياه ، وتمنت بلوغ قمة النشوة معه قبل أن يجرى الذبول فى اوصالها ، والاصفرار فى بشرتها ، والانهاك فى جسدها المنتظر ، والضياع التـدريجى للشهوة ! فهى تريد أن تمتعه حتى لا يتركها لسواها من المتربصات به من صديقات النادى : شيرين بعينيها الخضراوين ، وجدائلهـا الذهبية ، وبشرتها الطافحة بالحمرة ، وابتسامتها المرحبة بنظراته اليها ، ونجوى بوجههـا الملائكى وخجلها الباسم كلمـا خاطبها ، ومنال السمراء الدافئة ذات الشعر الطويل الأسود الفاحم النـاعم اللامع ، والصدر المشرئب الى الأمام كفوهتى بركان موشك على الانفجار ، والذراع الطويلة التى لم يسلم منها صدره أو كتفه كلما داعبته ، وزيزى التى طالما استعرضت جسـدها المتدفق بنـداء الحيوية فى البكينى الأحمر على حافة حمام السباحة ، ثم تأتى فى مقدمتهن معـالى ابنة خالته وخطيبتـه الموعودة التى مارست سيطرتها عليه بلا مبرر ، فهى لا تملك من اسلحة الجمال ما يمنحها مثل هذا الحق ! فهو بالنسبة لهن الدجاجة التى تبيض ذهبا !!

هبط وائل من على الحشية ليستوى على البساط ملتصقا بها ثم محتويا لها بذراعين من حـديد ! تحول النبض فى عروقه الى دقات حادة أصابت أذنيـه بالصمم ، وعينيه بالاهتـزاز ، وشفتيه بالاختلاج ، وذراعيه بالانتفاض ، وساقيه بالاعتصار ، فهجم عليها يعريها من ردائها الأحمر فاذا بها مستلقية تحته كما ولدتها أمها ، مسبلة العينين نشوة أو خجلا ؟ لا يعرف ! ولا يهم ! بين القبلات المسعورة والأحضـان المستعرة والاحتواء المتـأجج القى بملابسه قطعة قطعة ! لم يدر بما يجرى له أو يصدر منه ، لكنه ترك جسـده على سجيته ليتعامل مع جسدها الذى انساب تحته مثل حورية من حوريات الماء الفوار ، تتماوج صعودا وهبوطا بين أمواج الشهوة المتلاطمة وزبدها المتناثر برذاذ العرق المتألق برغم برودة القاعة !

تحول البساط الى بساط الريح المسحور ، يميل يمنة ويسرة دون أن يقع من عليه أحدهما ! ارتطمت الذراع أو الساق بحـافة المائدة الزجاجية القصيرة لكن الألم كان قد حذف من قاموسهما ! سرى خدر آخر فى عروقه المشدودة بالنبض داخل حنايا جسدها المرمرى وكهوفه الرطبـة فلفحه لهيب الجنة وتمنى أن يحتـرق به رمادا تمتصه كل المسام فى بشرتها الناعمة الملساء الزلقة بنـدى العرق الممزوج بالعطر والدخان !

كان الطوفان أعتى من أن تواجهــه حكمت بمفردها • فقــد شعرت لأول مرة بحيرة قاتلة وبوادر الهاوية تتكامل أمام عينيهـا لابتلاع ابنها الذى أصبح يطالب دائما بالمزيد من المال برغم أن اباه كان يغدق عليه شهريا ما يزيد على مرتب موظف كبير ، وطالما أن هذا المبلغ لم يعد يكفيه فلابد أن تكون هناك مأساة متربصة به ، وهناء هى الدليل المادى على هذه المأساة ! وبرغم كل هــذا فقــد شرعت فى استخدام كل أسلحة الأمومة للدفاع المستميت عن وحيدها، وبدأت بزوجها المشغول دائما ، المســافر الى الخــارج فى معظم الأحيان ، فتطالبه بالكف عن منح ابنهما هذه المبالغ الطائلة ، أو على الأقل بمعرفة كيفية انفاقها ، لكنه لم يهتم فى بداية الأمر على أساس أن خير الله كثير ولا داعى للتدقيق أو التقتير ، فهو لا يريد أن يعانى ابنه من الحرمان الذى احترق بناره فى صباه وشبابه • ومع ذلك تواصــل حكمت اصرارها على أن الحــرمان هو المدرسة التى صنعت منه رجل الأعمال العصامى الثرى ، وأن قلبها يحدثها بتوقعات بشعة فى انتظار وائل ، فيحول لها زوجها سلطة التحرى عن الأوجه التى ينفق فيها وائل أمواله نظـرا لانشـغاله الدائم ، ويعدها بأنه سيمارس الضغط عليه كلما طالبه بمبلغ جديد !

وتبتسم حكمت فى سخرية مريرة عندما يذكر زوجها كلمة « السلطة » وتتساءل : هل ذهب عصر سلطة الآباء على الأبناء الى غير رجعة ؟! انها ليست سلطة بمعنى الكلمة وانما خوف وحرص ورعاية وتقديم خبرة جاهزة مسبقة !! فهل يضرب الأبناء بكل هذا عرض الحائط ؟! لكن الأمور لا تتوقف عند حدود رفض النصيحة بل تشعر حكمت بأعراض جديدة تنتاب وحيدها وان كان يحاول اخفاءها بقدر الامكان ! فقد أصبحت لديه قدرة بل جرأة غريبة غير طبيعية لدرجة اهانتها ذات مرة فى نقاش حاد جرى بينهما وهو الذى لم يكن يخاطبها الا بكل احترام واجلال ! ومع ذلك لم تستطع أن تتحاشاه وهو فى طريقه الى الهاوية الغامضة بعد أن نأت عنه معالى بعد شجار عنيف أهانها فيه اهانة بالغة أمام زملاء وزميلات الكلية برغم أنها لم تقصد سوى معاتبته على سبيل الدعابة ! وكانت هناء الدافع الى هذا الشجار من طرف خفى ! لم يعبأ بجرح كبرياء معالى ابنة خالته وصديقة عمره التى تأكدت أن هناء قد طوته تماما تحت سيطرتها ، وأنه لا داعى لأن تجرح كرامتها مرة أخرى من أجل انسان يصر على السعى لحتفه بظلفه ، وكتمت حبها له فى قلبها لعل الأمور تعود الى مجاريها بمعجزة غير متوقعة ! فقد أصبح الأمر فى حاجة الى معجزة حقيقية بعد أن تأكدت الأسرة كلها من أنه أصبح مدمنا !

لاحظت حكمت الشراهة التى جعلت من فمه وأنفه مدخنة لا تكف طوال النهار عن اطلاق دخانها الرمادى الشفاف بعد ان كان يسارع الى اطفاء السيجارة بمجرد سماعه لوقع اقدامها ! أكدت لها خبرتها التربوية أن المواجهة المباشرة العنيفة قد تؤدى الى نتيجة عكسية تماما ، ولذلك حاولت قدر امكانها الضغط على أعصابها حتى لا تفلت منها وهى تستفسر منه عن السبب فى لجوئه الى التدخين برغم أنه لم يدخن سيجارة من قبل فى حياته ، لكنه تجاهل استفسارها بالانهماك فى قرض اظافره . وعندما ألحت

عليه ، صدها بعنف لم تألفه من قبل ! وتراوح وجوده فى المنزل بين الشرود والذهول اذا كـان بمفرده ، والعنف والوقاحة اذا حاول أحد مصارحته بالحـالة التى بلغهـا ! واصيبت أمه برعب قاتل أوحى اليها بأن أى احتكاك شديد معه قد يضطره الى الخروج من البيت بلا عودة !

لكن الرعب لم يقف عند حدود معينة ! لاحظت حكمت ترنح وائل وسقوطه اكثر من مرة عند استيقاظه من النوم ! وعندما كان قلبها الملهوف يدفعها الى سؤاله كـان يتعلل فى كلمـات مقتضبة وممطوطة بأنه الاجهاد فى المذاكرة ! ومع ذلك لم تواجهه بانصرافه عن المـذاكرة وابتعاده عن الكلية حتى لا يعـاود تهوره وجـرأته الطارئة ! كانت تحارب بلا سلاح لانقاذ ما يمكن انقاذه ! ولـذلك قررت اشراك كـل الأطراف التى يمكن أن تكون مفيدة ، فلم يعـد الأمر سرا تخشى أن يبلغ مصامع الآخرين ! فقد فات أوان الحفاظ على المظاهر ، وجاءت لحظة البحث عن حل بأى ثمن !

هـداها تفكيرها الى الاستعانة بابن أختهـا الدكتور يوسف طبيب الأمراض العصبية وهى تمنى نفسها بأن ما يمر به وائل مجرد حالة نفسية من تلك الحـالات التى اصبحت شـائعة بين شـباب اليوم ، ذلك أنها رفضت تصديق كابوس الأقراص المخـدرة وقـد جثم على كاهل وحيدها • جاء الدكتور يوسف كى تشرح له كـل الأعراض المتزايدة على وائل والتى لم تصارح بها أحدا على أمل أن تكون مجرد حالة عابرة سرعان ما تزول ، لكن مع تفاقم الأمور وفشلها فى مواجهتها بمفردها استدعته لتشرح له كيف يبـدو فى بعض الأحيـان وكأنه تحت تأثير تنويم مغنـاطيسى ، أو ذا جرأة جامحة لدرجة اهانة كبار السن أو المقام وهو الـذى لم يعرف فى حياته سوى الرقة والدماثة والحساسية البالغة ! بل بدا ذات مرة كالثور الهـائج الذى أوشك أن يحطم أثاث غرفته لولا أنه خـرج

وعاد هادئا فى منتصف الليل · ومرة أخرى ظل نائما ما يقرب من ثلاثة أيام متصلة · وكلما حاولت ايقاظه لتناول الطعام على الأقل ، كان يتعلل بالاجهاد وبرغبته الشديدة فى النوم ، ثم فقد شهيته تماما للطعام بحيث لم يعد يتناول أكثر من لقمتين أو ثلاثا فى اليوم الواحد ، مما أدى الى هزاله وشحوبه · ومرة ثالثة اصابه الأرق لمدة تقترب من الأسبوعين ، وكان فى حالة عصبية يرثى لها من انعدام شبه كامل للتوازن ، وشرود تجلى فى نظراته الزائفة ، وفقدان القدرة على الحيوية والعمل ، بل والكلام ، فاذا تحرك فانه يبدو وكأنه يترنح ، واذا تكلم فانه ينطق وكأنه ينتزع الكلمات انتزاعا من لسانه !

صمتت حكمت لتلتقط أنفاسها ونظراتها تستجدى الطمأنينة قبل المشورة من الدكتور يوسف المعروف بتفاؤله ودعابته الدائمة وروحه الرياضية العالية · هذا الشاب المرح الباسم ، انداحت ابتسامته المعهودة ، وتجسد التجهم المندهش فى ملامح وجهه وتساءل :

ـ ولماذا لم تخبرينى يا طنط بمجرد ظهور هذه الأعراض على وائل ؟!

ـ المصيبة يا يوسف أنه أصابنى بحيرة قاتلة بين رغبتى المحرقة فى حسم الموضوع وبين خوفى عليه من التهور !! أنا التى قمت بتربية وتنشئة اجيال وراء اجيال ·· وجدت نفسى عاجزة عن مساعدة ابنى ! ولم اجد سواك كى يساعدنى ·· فهو يعتبرك اخاه الأكبر وكلمتك مسموعة عنده !!

صمتت حكمت ليقول لها قلبها اشياء مفزعة سرعان ما نطق بها يوسف فى اللحظة نفسها :

ـ وائل ليس فى حاجة الى مساعدة ٠٠ بل فى حاجة الى انقاذ ! الموضوع كله فى حاجة ملحة الى مواجهة جذرية وحاسمة مهما كان خوفك من نتائج هذه المواجهة ! فالوقت لا يسير فى صالح وائل ٠٠ وكل يوم يمر دون حسم يساهم فى تفاقم المشكلة !

اصابت الصاعقة راس حكمت بالالتهاب والدوار لكنها تماسكت :

ـ هل هو الادمان يا يوسف ؟!

ـ كان يجب أن تخبرينى منذ البداية طالما كان ظنك هكذا !! لكن لا وقت للوم أو الندم الآن !! انها أعراض ادمان مخدرات اما اقراص أو حقن أو مساحيق مثل الكوكايين أو الهيروين !!

قاومت حكمت موجة عارمة من الندم والاحباط :

ـ لم أتصور أن ابنى الذى تربى بالأسلوب الراقى الذى تعرفه جيدا !! يمكن أن ينقاد الى هذه الهاوية !

ـ الادمان غير مرتبط بالتربية أو المستوى الاجتماعى ٠٠ فهو يبدأ غالبا من الاختلاط بالمدمنين ٠٠ ثم الفضول أو الرغبة فى التجربة أو التقليد أو اثبات الرجولة ٠٠ والقدرة على اختبار الحياة من خلال زملاء الدراسة أو أصدقاء النادى ٠٠ وممارسة احساس الانبساط والسعادة المزيفة ٠٠ أو الهروب من ضغوط معيشية متصاعدة بأحاسيس القلق والتوتر والخوف من المستقبل٠٠ ومع الأيام يبدأ الجهاز العصبى فى الانهيار بعد أن يعجز الكبد عن القيام بوظائفه بصفته أعظم مصنع كيماوى خلقه الله فى جسم الانسان ٠٠ فيتليف وبعدها تبدأ خلايا المخ فى التآكل تدريجيا !!

همس لسان حكمت دون وعى منها :

ـ لم أكن لأدرك أبعاد الكارثة بهذا الشكل ؟!

ربت يوسف على كتفها فى حنان حازم :

ـ لا أقول هذا الكلام لأرعبك ·· فلابد من مواجهــة الكارثة بكل أبعادها ·· وأول وسيلة لعــلاج الداء تشخيصه ثم تحـــديد الدواء ·· وبأسرع ما يمكن لأن خلية المخ تختلف عن باقى خــلايا الجسم فى أنها اذا ماتت فانها لا تتجدد مرة أخرى ·· مما يؤدى بعــد ذلك الى أعراض متصاعدة ومتزايدة مثــل التشنج والصرع والرعشة الدائمة التى لا يستطيع معها النوم أو مجرد الامســاك بأى شىء !!

شــعرت حكمت ببعض الطمأنينة الغامضة تسرى داخلهــا ، فوقوع البلاء ومواجهتــه خيــر من انتظاره فى وقت ومكان غيــر معروفين · تساءلت :

ـ وما مدى امكانية العلاج ؟! اعتمادى على الله وعليك ؟!

عادت الى وجهه بوادر ابتسامته العذبة :

ـ الحمد لله ·· فنحن لانزال فى البداية ·· وان كان الادمان يحدث بعــد الأقراص الأولى أو الشــمة الأولى ·· لكن الأعراض تتزايد اذا لم تتزايد الجرعة بدورها ·· سواء أكانت أقراصــا أو حقنا أو مساحيق ·· وذلك بعد اعتماد خلايا المخ على هذه المواد بعــد دخولهـــا فى السايتوبلازم المحيــط بالخليـــة ·· فيسرع السايتوبلازم فى الحركة بحثا عن المادة المخدرة التى اعتادها ·· وذلك فى تصـــاعد مستمر حتى تصل الى كميات مميتة للجهــــاز العصبى بحيث تدمر نواة الخلية تماما !!

ـ لم أسمع عن أشياء مثل هذه منذ أيام جدى عندما كان يحكى لنا عن أغنية سيد درويش : شم الكوكايين خلانى مسكين !

ـ بدأ استخدام اقراص الهلوسة منذ عـام ١٩٧٢ مع بداية سفر الشباب المصرى الى أوروبا حيث تنتشر هناك ٠٠ وللأسف لم يتعلم الشباب من أوروبا سوى جوانبها المدمرة ٠٠ ويبدو أن هناء كانت ضمن الشباب الذى زار أوروبا اذ انها كما علمت من معالى من أسرة ثرية أرستقراطية وان كانت مفككة ٠٠ كما علمت أيضـا انها جميلة ومغرية ويتمناها اى شاب !

ـ وهل الادمان يساعد على اثبات الرجولة كما قلت ؟!

ـ اننى افهم ما تعنيه يا طنط تماما وأوافقك عليه ايضا ٠٠ فلابد أنه توغل فى علاقته مع هناء ٠٠ لكن المدمن يشعر بالفحولة الجنسية فى البداية فقط ٠٠ لأن غيـاب وعيه يخفف عنـه ضغوط الحياة اليومية ٠٠ لكن مع استمرار التعاطى وتصاعده فان قواه تتسرب من جسده ٠٠ ومع الهبوط والانهـاك والضعف والرعشة والتبلد لا يوجد مكان للفحولة الجنسية ٠٠ ويتحول الادمان الى هدف فى حد ذاته !

عاد القلق لينهش قلب حكمت بأظافره الحادة المعقوفة :

ـ لا انكر ان الاحساس بالذنب يكاد يقتلنى !

ـ أعتقد أن التدليل والفراغ كانا من أسباب انحراف وائل ٠٠ فقد تصور أن من حقه أن يحقق الآخرون رغباته بمجرد أن يبديها ٠٠ كما أنه لم يمارس اية هواية رياضية أو فنية أو ثقافية تشغل فراغه وتنمى فكره ووجدانه ٠٠ برغم أن لديه طاقة مكبوتة كانت تعبر عن نفسها فى بعض تصرفاته العصبية كما فعل فى الصيف الماضى فى الاسكندرية ٠٠ أما أنا فلا يمكن أن أنسى فضل الرياضة على منـذ أيام الدراسة ٠٠ ولا أزال الجأ اليها حتى الآن ٠٠ كذلك فان معالى تعشق القراءة لدرجة النهم !

وضعت حكمت خدها على يدها فى استسلام مرعب :
- والعمل يا يوسف ؟! الحل ؟!

- لابد من البدء بوائل نفسه ومواجهتـه بكل شىء ! فهو لم يعد طفلا ! لابد أن يعرف حقيقة الهاوية المنساق اليها !

- بذلت المستحيل لكنه تفنن فى أساليب صدى ! مرة بالعزلة والصمت وأخرى بالتهرب والتملص وثالثة بالانكار والكذب !!

- فلنجرب قطع الدعم المـادى أو على الأقل تخفيضه لمجرد الوفاء بضرورياته !

- لن يجدى العنف يا يوسف ! وربما أتى بنتائج عكسـية تماما !

- على كل حال ·· أنت أدرت يا طنط بمداخله ومفاتيحه !·
لكن لابد من مواجهة سريعة وحاسمة فالزمن لا يسير فى صالحنا ! وأنا تحت أمرك !

- فى اعتقادى أن هناء هى أس الفساد !! فمنذ أن عرفهـا وصادقها وقد تغير من النقيض الى النقيض !

- التعامل مع هناء أصعب بمراحل من التعامل مع وائل !! فهى لا تربطنا بها وشائج قربى أو صلات جوار أو صداقة !! ومن الواضح أن وائلا يشكل بالنسبة لها مصدرا ماليا لا يمكن التخلى عنه بسهولة !! فطلبات المدمن من المال تتزايد ولا تقف عند حـد معين ·· وعادة لا يكفيه المصروف مهما كان ضخما ، وتبدأ بعض الأشياء فى الاختفاء من المنزل ·· ودائما يوجه الاتهام الى أى انسان غريب بالمنزل ·· ولدينا فى المستشفى حالات عديدة من هذا النوع !

ـ حتى الآن لم يحدث أن اختفى شيء من البيت !! فاذا كان وائل قد تعلم الكذب فانه لا يمكن ان يصبح لصا !!

ـ هذه المصيبة لا حدود لها !! فالمدمن يبدأ التعاطى بجرعة مرتين فى اليوم ·· فمتوسط الجرعة فى الجسم لا يتعـــدى سبع ساعات ·· ثم تتضاعف الجرعة ومعها النزيف المالى حتى يصبح مستعدا لعمل أى شيء غير شرعى وغير قانونى للحصول على هذه الجرعة ! وقد يحاول المدمن الانتحار أو اصابة نفسه اذا لم يستطع الحصول على الأقراص أو الحقن أو المساحيق !

هزت حكمت ساقها فى عصبية لم تخف على يوسف الجالس امامها :

ـ لا أعتقد أن ابنى قد بلغ هــذه المرحلة البشعة التى تتكلم عنها !

ـ لكنه فى الطريق اليها اذا تركنا الأمور على ما هى عليه ! أريد منك ملاحظة أى بقع من الدم فى ملابسه !

دقت على صدرها اللاهث بيدها :

ـ لمــاذا ؟!

ـ لأنها علامة تشير الى أن تعاطى المخــدرات البيضاء يتم بالحقن ·· لأن الكثيرين يهربون من الحقن فى الأيدى حتى لا تلفت أنظار الأنظار ·· وعادة يتم الحقن فى الساق حتى لا تظهر أمام عيون الأسرة ! ومن ناحيتى سأحاول تقوية أواصر الصداقة بينى وبين وائل حتى يطمئن لى ·· وربما نجحت فى أن يفتح لى قلبــه ويحكى لى عما يؤرقه !! فالتربية الصحيحة لا يمكن أن تضيع هباء هكذا لمجرد دخول فتاة مثل هناء فى حياته !!

نهضت لاهثة ولسانها يتمتم : لم تكن صحيحة تماما !! لم تكن صحيحة تماما ! ثم هرعت الى خارج الغرفة ويوسف يتابعها فى دهشة ! نظر الى ساعته فى قلق ! فالمسافة بين الهرم وحلوان طويلة ، ولا يوجد طبيب فى هـذا الوقت يمـكن أن يحـل محـله بالمستشفى ! كانت الساعة الذهبية الفخمة فوق الرف الرخـامى تقترب من السابعة مساء وقد أخبرهم فى المستشفى تليفونيا أنه لن يتأخر عن الثامنة ! كل هذا من أجل لقاء بينه وبين وائل اتفق عليه خصيصا حتى يبدو وكأنه محض صدفة ، لكن يبدو أنه لن يعود الى البيت قبل ساعة متأخرة من الليل !

قطعت خالتـه حبل خواطره بدخولها وهى تكـاد تتنفس الصعداء :

– الحمد لله !! فحصت ملابسه فى الحمام فلم أجـد بها أية بقع دموية ! مهما كان ومهما حدث فهو ابنى وأنا أدرى به !!

– هذه بداية مشجعة لكن الاطمئنان ليس من حقنا حتى نفصل بينه وبين هناء كخطوة أولى !

– آه من هناء هذه ! آه لو التفت أصابعى حول عنقها !!

– الموقف فى منتهى الحساسية ولابد من معـالجته بمنتهى الحكمة يا طنط حكمت !!

اغتصبت حكمت ابتسامة وهى تعود الى جلستها أمامه :

– أنت لا تعرف قلب الأم يا يوسف !! لكننى سعيدة بحكمتـك المبكرة !

نهض يوسف ناظرا الى ساعة يده :

– هناك حالة جديدة فى انتظارى الآن بالمستشفى !!

– وماذا عن هذه الحالة الجديدة الملحة فى بيتنا ؟!

ـ يمكن لمعالى أن تحصل من النادى على كل المعلومات المفيدة عن هناء حتى تكون تصرفاتنا على نور !! ومن ناحية عمى لابد أن يضغط ما يمنحه لوائل الى ما يفى فقط بحاجاته الضرورية حتى نحدث شرخا فى علاقته بهناء !! فأمثالها لا يعرفون الحب لوجه الله !

ـ سأسير فى هذين الخطين !! وعليك أنت التقرب منه بأسلوبك الحكيم حتى نحتويه مرة أخرى !! فلا يعقل أن ترجح كفة هناء هذه كفتنا كلنا نحن الذين نخاف عليه ونحبه كعيوننا !

ـ فليفعل الله كل ما فيه الخير !! المهم أن نظل يقظين حتى تنتهى هذه المحنة !!

شد على يدها فى حرارة وخرج فى حين أسرعت الى الحمام لفحص ملابس ابنها مرة أخرى للتأكد من أنها بداية مشجعة حقا !

- ٧ -

انتابته رجفة عابرة وهو يضغط على زر الجرس والضحكات تخترق الباب لتصطك بأذنيه · فهـذه هى المرة الأولى التى تدعوه فيها هناء الى حفلة من الحفلات التى حدثته عنها من قبل ! فكم تردد كثيرا لحضور هذه الجلسة العامة بعد ان اعتاد الاستمتاع بالاختلاء بها ! لكنه لم يكن يستطيع أن يرفض لهـا طلبا بعـد أن أصبحت كل شىء فى حياته !

دق الجرس مرة أخرى اذ يبدو أن أحـدا لم يسمعه ! تذكر وائل أنها أعطته نسخة من مفتاح الشقة فابتسم ابتسامة سـاخرة وأخرجه من جيبـه ليفتحه · وجد فى القـاعة وعلى الحشـايا ما توقعه ، ومع ذلك لم يمنع نفسه من الاحساس المفاجىء بالصدمة!

التف الغائصون فى الحشايا حول المائدة الزجاجية القصيرة المستديرة : أربعة رجال فى شرخ الشباب ، اثنان منهم فى منتهى الوسامة والأناقة التى تنم عن النعمة الغامرة ، فى حين يبدو على الآخرين أصلهما المتواضع القادم من وحل الأزقة الباردة المعتمة ، وقد كاد أحدهما أن يجلس ملتصقا بهناء التى لم تبد نفورا مثـل ذلك الـذى سرى فى عروق وائل · لم يجلس الرجال متجـاورين تماما ، فقد كانت هناك فتاة بين كل اثنين منهما ! ثلاث فتيات فى

عمر الزهور ، نحيلات القوام ، منمقات الملامح ، انيقات الملبس ، وتنم نظراتهن عن جذور راقية !!

لكن الجميع رجالا ونساء اشتركوا فى النظرات الزائغة ، والضحكات المشروخة ، والتدخين المصحوب بسحب الدخان الـذى ضاعف من عتمة المصباح ذى اللون الوردى المتدلى من السقف ، واحتساء الشاى والقهوة برشفات ذات ايقاع لا يعرف الخجل ! اما على المائدة الزجاجية التى فقدت شفافيتها فقد قبعت زجاجات الأقراص ولفافتان تحتويان على مسحوق أبيض داخل غلاف شفاف، وعلى البســاط الأحمــر المشبع بالتراب والرطوبة تربعت نارجيلة سحب أنفاسها هذا الجلف ذو الجثة الضــخمة والشارب الكثيف الملتصق بهناء !

اخرجت هناء وائلا من شروده وحرجه فى البحث عن حشية خالية لم ينجح فى العثور عليها فظل واقفا حائرا :

ـ تفضل يا وائل ٠٠ لست فى حاجة الى دعوة !

ضحك الجلف وقال له بصوت أجش مع الدخان المنبعث من حلقه وأنفه :

ـ معك مفتاح الشقة وتخجل من الجلوس بدون استئذان ؟ لم تمنح هنونة هذا الشرف لأحد من قبل !

تفجرت الضحكات المترنحة على الورق المنبعج على جدران القاعة فى حين أفسح الشــاب الأنيق الرقيق مكانا لوائل الـذى اضطر الى الجلوس على البســاط فبـدا قزما منخفضـا بجـوار الغائصين فى الحشايا ، فى حين خرجت كلمـات هنـاء مع سحب الدخان من بين شفتيها اللتين لا يمكن أن ينسى مذاقهما :

– نسيت أن أقدم لكم صديقنا الجديد وائل ابراهيم !

صاح الجلف والدخان يتدفق من خياشيمه هذه المرة ، وهو يصفق بخرطوم النارجيلة على كفه الخشنة السميكة ذات الأظافر السوداء :

– تصفيق حاد وهتاف متواصل ٠٠ عاش وائل ابراهيم !

برغم برودة القاعة والرطوبة المنبعثة أسفل البساط المترب ، شعر وائل بقطرات العـرق تسرى تحت ملابسه ! أغنته قهقهـات الحاضرين عن البحث عن كلمات مناسبة للرد فى حين واصلت هناء تقديم ضيوفها ٠ ربتت على كتف الجلف قائلة :

– ميمى ترافولتـا مـدير شئون الكيف !! والمسـئول عن التموين !! وبدونه ليس لنا عيش فى هذه الدنيا !

توالت القهقهات الجوفاء لكن الجلف لم يصمت :

– ميمى ترافولتا على سن ورمح من فضلك !

ووسط الضحكات والأنفاس واصلت هناء مهمتها مشيرة الى السمراء الرقيقة بصفتها الأولى فى الدائرة من ناحية اليمين :

– نوجة النحنوحة ملكة الربيع والبلابيع !

ثم الى الشاب الأسمر ذى الشعر الأكرت والشفتين الغليظتين ووشم السمكة على ظهر يده :

– على المسلكاتى ٠٠ سباك بدرجة مطرب !

علق ميمى ترافولتا وقد تضاعفت حمرة عينيه ووجهه الى درجة الاحتقان :

– درجة عاشرة !! الناس مقامات !!

تصاعدت القهقهات الصاخبة مع ضحكات الفتيات الحادة فى حين أشارت هناء الى الشقراء التى امتزجت الحمرة بخضرة عينيها :

ـ سونا السهتانة ٠٠ ملكة المزاج العالى !

علق ميمى ترافولتا مستمتعا بصدى دعاباته :

ـ والواطى أيضا !

أشارت هناء بذراع مسترخية انهاكا الى الشاب الرقيق الأنيق الذى أفسح مكانا لوائل الى جواره وقالت :

ـ بلبل حيران ٠٠ لم يعثر على وليفه بعد !

ثم الى الفتاة ذات البشرة الخمرية والخصلات السوداء المتهدلة على عينيها :

ـ ألمظ ٠٠ سلطانة الطرب والطرب !

هدأت القهقهات وتحولت الى ضحكات ثم الى ابتسامات بلهاء وهناء تشير الى الشاب الأنيق الشارد الجالس الى يسارها :

ـ عبده الحامولى ٠٠ لكنه لا يغنى على الاطلاق ! لكن القافية تحبك !

ران صمت لم يقطعه سوى صوت الأنفاس وكلمات ميمى ترافولتا :

ـ ووائل بك ابراهيم !! هل له وظيفة !!

ضحكت هناء وهى تشرع فى شد الكلمات من لسانها :

ـ أستاذ مساعد فى كلية التجارة !

فتح ميمى احدى الزجاجات ومد يده لوائل الذى رحب به املا فى الهروب من الضغوط التى واتته على غرة ! القى ميمى فى يده حوالى عشرة أقراص وهى الجرعة التى أصبحت تكفيــه بالكاد ! طرح وائل خجله عن كتفيــه وصب معظم ما فى ابريق الشاى فى كوب أمامه ، ورشفة سريعة خلف كل قرص وميمى يتابعه بابتساماته وسحب دخانه :

ـ أستاذ والله !! ناقص الحقن والشم !!

ابتسم وائل الــذى عاهـــد نفسه أن يقتصر مزاجــه على الأقراص ، فى حين مد على المسلكاتى يده وفتح اللفــافة الشفافة وأفرغ مسحوقها على ظهر يده فى المثلث المنتهى بالسبابة والابهام ، ثم أطبق بفتحتى أنفه عليه ليشهق بكل ذرة فيه ، وعيناه مسبلتان بشكل أثار تعليق ميمى :

ـ هكذا العشق والا فلا !

وجد وائل نفسه يعلق بصــوت خافت لأول مرة وهو يشــعل سيجارة :

ـ عشق واكتفاء ذاتى فى الوقت نفسه !

علق ميمى وقــد تلكأت الكلمــات على لسانه والنظرات فى عينيه :

ـ البك يتكلم فى السياسة !!

ثم تعطلت لغة الكلام ، وفقد الحوار كل معنى له ، وتداخلت الجمل ، واختلط الحــابل بالنــابل ! فالكل متكلمون دون مستمع واحــد ! أسئلة فى الفراغ واجــابات مبتورة أو لا اجــابات على الاطلاق فى سكون السحب الرمادية :

ـ هددنى ابى بالطرد من البيت اذا لم اقلع عن المزاج فصرخت امى وندبت حظها الأسود !!

ـ من حفر حفرة لأخيه وقع فيها !!

ـ اهل الهوى ياليل !

ـ اهل الكيف أجدع !!

ـ الحب فى القلب مثل الأرز فى الكوسة !!

ـ اما أبى فمدمن السفر المستمر !! لا أعرف ما يفعل فى كل هذه السفريات !! لكننى أرحت نفسى أخيرا ونسيت الدنيا كلها !!

ـ لو أظل هكذا حتى نهاية الدنيا !! فهذه هى الجنة بعينها !!

ـ اما أنا فقد طلق ابى امى ٠٠ وعاش كل منهما مع وليفه الجديد فى التبات والنبات وخلف صبيان وبنات !! ولم يعد لى مكان سوى هنا مع الأحباب !! حفظهم الله لى وأطال عمرهم !

ـ كلما اتذكر أن اسمى : نوحة النحنوحة اكاد اموت من الضحك !! الله يجازى شيطانكم !! لا أعرف من أين تأتون بهذه الأسماء ؟!

ـ هكذا أولاد الايه دائما !

ـ قررت الحكومة القبض على اى شمام يضبط متلبسا !

ـ وماذا عن البطيخ ؟!

ـ ناقشوا قضيته امس فى مجلس الأمن !!

ـ لو عرف ابى أن اسمى سونا السهتانة لطلق امى ؟! فهو يبحث عن اية حجة لتطليقها بعد ان فتح الله عليه !

ـ هكذا والا فلا !!

– فــلا !

– هكذا !

– قلت هذا بالأمس ! وأقوله اليوم ! وسأظل أقوله الى الأبد !

– الى الأبد ! الى الأبد ! الى الأبد !

– يقولون فى التليفزيون اننا نحطم مستقبلنا بأيدينا !! أتمنى أن أصارحهم وأسألهم بدون خجل : أين هذا المستقبل حتى نحطمه ! هل هو الوظيفة الحكومية ومرتبهـا الذى يمنحه واحـد من اياهم لساعديه على سبيل البقشيش العابر ؟! أم الشقة التى لن نجـدها الا فى الأوهام ؟! ان حيـاتنا أوهام فى أوهــام سواء مع الادمان أو بدونه !

– الزواج وهم !

– والحب وهم !

– والتعليم فى المدارس وهم !

– والعلاج فى المستشفيات وهم !

– والأسرة وهم !

– والوهم وهم !

– ومن يعتقد غير ذلك فانه أول الواهمين !

– الوهم طعامنا اليومى !

– قل لى عن انسان واحد لم يدمن الوهم نتيجة لتصريحات المسئولين . ومقالات الصحفيين .. وبرامج الاذاعة والتليفزيون!!

– ما يقال ونسمعه ليس له علاقة بما نراه ونلمسه !

– غدا نســمع عن شركة من شركات الانفتــاح اياه .. تبيع الوهم فى زجاجات .. والمستهلك الطيب الغبى يسرع الى الشراء !

ـ الفلوس مع التيوس !

ـ تعددت الأمزجة والوهم واحد !

ـ أتمنى أن أنام ولا أستيقظ أبدا !

ـ مفعول هـذه التذكرة غريب ! أشـعر بأشياء تسرى تحت جلدى !

ـ لم أعد قادرا على الكحة بعد أن شربت كل أدويتها !

ـ لا تكح والا رحت فى داهية !

ـ اختلط الحابل بالنابل !

ـ والشامى بالمغربى !

ـ هجرتنى وهى تظن أننى سألهث وراءها ! قلت لها حمل وانزاح !

ـ لم أحتمل جلسات الوعظ والارشاد ! خلعت الدبلة وألقيتها فى وجهه ! لم يكن ينقصنى الا وجع دماغه !

ـ فلتحيا الحرية !

ـ كم من شهداء ماتوا من أجلها ؟!

ـ ونحن شهودها وشهداؤها فى هذا الزمن العجيب !

ـ لا يعرف أحد قدرنا الحقيقى !

ـ انه قدرنا !

ـ وماذا بعد ذلك ؟

ـ وهل كان هناك قبل ذلك ؟!

ـ لابد من دراسة ذلك هذه !

ـ وهو كذلك !

ـ المركب اللى تودى !

- الى اين ؟!
- ليس عندى أدنى فكرة !
- يا عينى على الولد !
- والبنت ؟!
- من هما ؟!
- لا أعرف !!
- وأنا أيضا ! فمن يعرف لن يسلم من الأذى !!
- كفانا الله شرهم !
- أصروا على ايداعى مصحة ! وعندما وافقتهم لم يفاتحونى فى الموضوع مرة أخرى ! اكتشفوا أن الشم أرخص !!
- الصحة تاج على رءوس الأغنياء لا يراه الا الفقراء !!
- نحن فى المزاج اخوة لا فرق بين غنى وفقير !!
- أهذه هى الاشتراكية التى درسناها فى الكلية ؟!
- لا أحب الكلام فى السياسة ! الجدران لها آذان !!
- لم ينج من اضرابات الأسبوع الماضى كل من فتح فمه بكلمة !

- اما انا فلم يمسنى سوء ! لم أفهم كلمة واحدة من حناجر المتظاهرين ! لم أعرف لماذا يحملونهم على الأعناق ويهتفون ؟! بح صوتهم وتصبب عرقهم ! ولولا السياط والعربات المغلقة لاستمر عذابهم الى ما لا نهاية ! من يمل الجامعة فليتركها ! لم يضرب أحد منهم على يده !
- وجع الدماغ هواية بعض الناس !
- ابعد عن الشر وغن له !
- والباب الذى تأتى منه الريح !

ـ يقولون ان الشم يخرب البيوت ويفرغ الجيوب ٠٠وينسون الدرس الخصوصى الذى أصبحت ساعته بثلاثين جنيها !! وكشف الطبيب الذى لا يقل عن خمسين جنيها !! والحذاء الذى لا يقل عن الدرس الخصوصى !

ـ من يعرف كيف يكسب القرش يضع اصبعه فى عين من يعجبه ومن لا يعجبه !

ـ ومن لا يعرف ؟!

ـ ربنا يستر على عينيه !

ـ لا يهم ! فالبصير فى هذا الزمن أعمى !

ـ خذوا الحكمة من أفواه !!

ـ كلهم فى نعيم !

ـ ونحن أيضا !

ـ لم أعد أعرف الحد الفاصل بين النعيم والجحيم !

ـ كله عند العرب صابون !

ـ أو بين الجنون والعقل ؟!

ـ حطم سيارته المرسيدس الجديدة فى شجرة بشارع الهرم ٠٠ وعندما علم أبوه بالحادث قال له : المهم سلامتك ٠٠ ساشترى لك أخرى جديدة ٠٠ خير ربنا كثير !

ـ ارتفعت اسعار عمليات الاجهاض الى ارقام فلكية ! وتدعى الدولة انها تشجع تنظيم الأسرة ؟!

ـ اذا لم يرحمنا الله فلن يرحمنا احد !

ـ الرحمة تجوز على الميت والحى !

ـ الآن فقط تأكدت انها تجوز علينا !

ـ لا تكن واثقا هكذا ! فربما لا نكون تحت أى بند منهما !

ـ الموضوع خرج من يدى يا سيد !

واستمر الحوار طويلا ، ممطوطا ، متقطعا ، متناثرا ، مشتتا مع الألسنة الثقيلة البطيئة ، والنظرات الزائغة الشاردة ، والضحكات المشروخة المتشنجة ، وسحب الدخان الذى أوشك على اخفاء المصباح ذى اللون الوردى المتدلى من السقف ، ورشفات الشاى والقهوة ، وأنفاس النارجيلة وكركرتها ، وحمرة البساط المشبع بالتراب والرطوبة التى امتزجت بحمرة العيون التائهة ٠

كانت هناء تتبادل مع وائل من حين لآخر النظرات الهائمة الناعسة التى يعرف معناها جيدا ! انها تناديه لكن كيف سيتم اللقاء فى وجود هذه المجموعة الغريبة التى تقول كلاما أكثر غرابة ؟! فلينتظر ما سوف تأتى به اللحظات القادمة فلم يعد هناك من يحاسبه على تأخره أو بياته خارج البيت ! ان الانسان يعيش حياته مرة واحدة كما تقول هناء دائما ، وعليه أن ينهل من كل متعها قبل أن تغرب شمسها بلا عودة !

تاهت الأفكار منه قبل أن تعود مع صحوة عابرة طمسها بأقراص جديدة وهو بعينيه الحمراوين يتابع ألمظ وهى تنسحب ناهضة مع عبده الحامولى الى غرفة جانبية ! فهم وائل معنى نظرات هناء اليه ! فهما لم ينسحبا للعب الورق أو الشطرنج ! لم يتصور أن هناء تعيش حياة بوهيمية الى هذا الحد ! آه لو عرفت أمه ما يراه الآن كشاهد عيان ! سيكون كابوس عمرها فى حين أنه يمر به كحلم ناعس وطيف رقيق برغم ذلك الصوت الداخلى السخيف الذى يحذره من التوغل أبعد من ذلك فى بحار هناء العميقة الباردة المعتمة التى ربما أوردته موارد التهلكة !

كتم الصوت والساعة تدق الواحدة صباحا على جدار القاعة المعتمة ! نظرت هناء باسمة الى الجلف ذى الجثة الضخمة والشارب الكثيف فأجابها بنظرات لم يفهم وائل معناها وان قاومت الخدر السارى فى عروقه ، فقد كان فى أشد الحاجة لوعيه الغائب ليستوعب ما يدور حوله وان كان عاجزا عن استيعاب ما يدور داخله ! نهضت هناء لتسير وتستدير اليه وتمسك بيده وتنهضه ! استسلم لها تماما وان كان قد أصابه بعض الحرج وسط النظرات التى ظن أنها تحيط به وتتابعه كما تابعت ألمظ وعبده الحامولى من قبل .

دخلت به غرفة نومها التى أضاءت مصباحها وتركت بابها مواربا لكنه سرعان ما أغلقه دون أن يحدث صوتا ! استرخت على ظهرها فى فراشها فرأى ساقيها المرمريتين مشطورتين فى المرآة المشروخة وسط الدولاب العريق الفخم ! آه .. كم يحب هذه الغرفة التى قضى فيها مع هناء أهنأ لحظات صحوه ومنامه نشوة ! يحب فيها كل شىء : المشجب الذى ينوء تحت ملابسها الخارجية والداخلية فى انتظار الغسيل ، والرف الزاخر بالزجاجات ذات الأحجام والألوان المختلفة ! والمسجل الضخم الذى طالما صدح بموسيقى مجنونة !

لكن النشوة هذه المرة لم تكن على ما يرام وكذلك الرغبة ؟! هل لوجود هذا الحشد الذى لم يألفه من قبل ؟! أم لأن مفعول الأقراص لم يعد أكيدا كما كان عند بداية التعاطى ؟! لماذا فقد حماسه للتعرى فى حين لم يعد حول جسدها المسترخى سوى اطارى النهدين والردفين ؟! هل يمكن أن تكون علاقتها بذلك الجلف الجالس خارجا مشدودا الى نارجيلته مثل علاقته بها ؟! يجوز ! فلها مطلق الحرية فى أن تفعل ما تشاء ! فهو ليس برقيب عليها ولم

تشترط عليه شيئا حتى يفرض عليه شروطه بدوره ! صحيح أنهـا تقترض منه مبالغ ضخمة فى الفترة الأخيرة دون خجل أو حرج ! لكنه هو الذى شجعها على هذا وكان فى امكانه أن يتعلل بحجة انتظار عودة أبيه من الخارج للحصول على المبالغ المطلوبة او اية حجة أخرى ! لكنه يخاف على مشاعرها من جرح النسيم العليل ، فهى تمنحه من المتعـة ما يفوق أية مبـالغ مدفوعة ، حتى لو لم تردها ، وهو ما يتوقعه بالفعل ، فالجنس بدوره أصبح سلعة غالية برغم الأصناف الرديئة المطروحة فى السوق كما سمع من أصدقاء النادى وزملاء الكلية ! ذلك ان هجوم الأشقاء العرب على السياحة او الاقامة بمصر جعل من بعض الخادمات سيدات مجتمع !

نهضت وجذبته من يده باسمة حتى أجلسـته على حـافة الفراش وهى تداعبه متسائلة :

ـ هل تريد أن تملأ عينيك بى قبل الغزو الأخير ؟!

تلعثم قليلا ثم قال دون تفكير :

ـ يبدو أننى لا أحتمل وجود منافسين لى فى حبك ؟

ـ لا أحـد يستطيع أن ينـافسك فى حبى ! فهـؤلاء مجرد أصدقاء !! واياك ان تتصور أننى رخيصة الى هذا الحد ؟!

تصاعدت الأبخرة الغائمة من تلافيف مخه وانحنى على يدها ليقبلها متوسلا :

ـ كيف يطرأ على بالك مثل هذه الأفكار ؟! فحبى المشـتعل دائما أصابنى بالغيرة فى الفترة الأخيرة !!

ـ الغيرة لا تعرف طريقا الى قلب الواثق من نفسه !

ـ ثقتى بنفسى هى ثقتى بك !

ـ اثبت ذلك عمليا ولا تقض الليلة فى الثرثرة الفارغة !

اجتاحته قشعريرة كهربية ! شرع في التخلص من ملابسه في حين ألقت باطارى النهدين والردفين جانبا ! جذبته حتى التصق بها متمددا ! لكن قمم الشهوة الفائرة بالزبد لم تغط أمواج الرغبة التى تكاد تنحسر عند ساحله ! ضمته الى صدرها متسائلة :

ـ تبدو متوعك المزاج الليلة ؟!

تلعثم قليلا ثم تمتم :

ـ أبدا ·· أبدا !! هل يمكن أن يتوعك مزاجى وأنا معك ؟!

ـ على كل حال ·· لن أضغط عليك !!

انهال عليها بقبلات متنـاثرة على الوجه والشـفتين والعنق حتى يثبت لها كذب ظنونها ، لكنهـا أزاحتـــه فى رفق ونهضت جالسة ، فجلس الى جوارها دون أن يلتصق بها :

ـ يبدو أن مزاجك أنت هو المتوعك ؟!

ـ لا أخفى عليك !! فهناك موضوع حاولت أن أخفيه عنك منذ أسبوعين وأكثر ·· لكن من حقك أن تعرفه فأنت شريكى فيه !!

زحفت برودة قاتلة الى أطرافه ، وحدثه قلبه بمشاعر مرعبة مميتة ! اندحرت الرغبة تماما وتمنى أن يكون فى فراشه وفى كنف أمه التى تملأ البيت دفئا وحنانا ! تماسك حتى لا تحتقر خوفه :

ـ تعرفين جيدا أننى لا أتأخر عن تلبية أى طلب لك !

ـ منذ أكثر من شهر شعرت ببعض بوادر الحمل !! ونظـرا لجهلى التام بهذه الامور أشارت على بعض الصديقات بالقيام بعمل اختبار حمل !

قاطعها محاولا استعادة قلبه من قاع قدميه :

ـ وماذا كانت نتيجة الاختبار ؟!

ـ ولماذا أنت ملهوف بهـذا الشكل ؟! هل تريد أن تصـبح أبا ؟!

لعنها لأول مرة فى سره وهى تتلاعب باعصابه بهذا الشـكل المفضوح ! تدارك الأمر بابتسامة بلهـاء شاردة غطت عجـزه عن ايجاد كلمات مناسبة فقالت :

ـ على كل حال ٠٠ لن أتركك على نار اللهفة أكثر من هذا ! كانت نتيجة الاختبار ايجابية !! أثبت التحليل أننى حامل وفى نهاية الشهر الثانى !!

تحول الفراش تحتـه الى قارب صغير وسط محيط متـلاطم بالأمواج والأعاصير ! فاذا كان الأمـر صحيحا فكيف يتأكـد أنه شريكها بالفعل وهى التى تعيش حياة الانطلاق بلا حدود ؟! لكنـه لا يستطيع أن يفصح لها عما ينهش وجدانه ! ماذا تقصد بهـذه المواجهة ؟! آه من هذا الذهن المشتت الذى لا يكاد يسعفه بالتفسير السريع المعقول ! هل تمهد لموضوع الزواج الذى تجاهلته أو ادعت تجاهله من قبل ؟! أم أنها تهدف الى أشياء أخرى لا تخطر بباله ؟!

ـ مالك لا ترد ؟! هل أصابك الندم على وقوعك فى غرامى !

انتزع وجدانه من شروده مستدركا باجابة غير جاهزة :

ـ أبدا !! أبدا !! ففى الواقع لا أعرف ماذا أقول ؟

ـ فاتحتـك فى الموضوع حتى أستنير برأيك ! لم أتوقع أن تصدنى بهذا الشكل ! برغم أننى لا أريد أن أحملك أية مسئولية !!

فتحت ثغرة فى جدار الاحباط السميك فاسترد أنفاسه محاولا جمع شتات أفكاره :

ـ أبدا ٠٠ أبدا !! فأنا على استعداد لمساندتك الى آخــــر المدى !

ضحكت فى تشنج عابر :

ـ لن أطالبك بستر عرضى كما يحدث فى الروايات والأفــلام المصرية ! فالحب عندى ليس بجريمة ٠٠ وانما كل ما أطلبه أن نجد حلا لهذه المشكلة !

ـ كنت أظن أنك تتعاطين حبوب منع الحمل ؟!

ـ أنت تعلم جيدا أننى لا أستطيع أن أواظب على نظام معين !! فأنا لا أتصور حياتى بلا فوضى !!

ـ والعمل الآن ؟!

ـ عدنا الى الحيرة التى لا أتوقعها من رجل عاهدنى منـــذ البداية على أن يحمينى بحيــاته !! لا أن يشــاركنى فى حل مشكلة عابرة نمر بها سويا !

كيف تعتبر هذه المصيبة مشكلة عابرة ؟! هل اعتادت مثـل هذه المشاكل من قبل ؟! هل يجــرؤ على مصارحتها بالافكــار التى تنتابه من وحى اللحظة ؟! قال على سبيل سد فراغ الصمت :

ـ على كل حال ٠٠ أنا تحت أمرك فى كل ما تأمرين به !

ـ لو كان الأمر مجرد أمر لأمرتك بالزواج منى فى الحال ! لكننى أعرف ما يدور داخلك ولذلك أطلب منك التفكيـــر فى بديل آخر !

تحول عرى جسده أمامها الى عرى نفسه من الداخل ! كيف يستر عورته النفسية أمام هذه الشيطانة التى يخترق وميض عينيها الرماديتين كهوفه المظلمة ! فليتحدث معها فى كل الاحتمالات وليكن على مستواها !

– اننى أتمنى فى أعماقى الزواج منك ! لكنه موضوع اجلت التفكير فيه الى ما بعد التخرج ! ولذلك أفكر الآن فى التخلص من هذه المشكلة العـابرة ! فانا أخـاف على مسـتقبلك خوفى على مستقبلى !!

ابتسمت وهى تسند ذقنها الى ركبتيها :

– هكذا يكون التفكير العاقل ! لكننى للأسف لا أملك تكاليف عملية الاجهاض التى بلغت ما لا يقل عن ألف جنيه !

– الى هذه الدرجة ؟

– لا تنس أن اجهاض غير المتزوجة أضعاف أضعاف المتزوجة! فلابد أن تتم فى منتهى السرية وفى عيادة خاصة !!

داس الاحباط على أعصابه المشدودة بعجلات من حديد :

– لم أعمل حسابا لهذه المشكلة العويصة التى تسببت فيهـا لك !! فكيف ستقومين بهذه العملية بمفردك ؟! وأين تلك العيـادة الخاصة التى تتكلمين عنها ؟!

– لا أحب أن أراك وكـأنك على وشك لطم الخـدود !!·· ستصحبنى احدى صـديقاتى الى طبيب تخصص فى مثـل هـذه العمليات ·· فهى جربته من قبل أكثر من مرة ؟!

– لماذا ؟!

– لأنها لا تحتمل الأثر المقيىء لحبوب منع الحمل !!

اذن ·· فكل صديقاتها من هذا النوع ! يبدو أنه توغل فى بحار عميقة لا يحسن السباحة فيها ! تذكـر بحيرة شاطىء المنتزه التى طالما شهدت سباحة معالى وأخيها يوسف ساعات وساعات ! تذكر كرهه للسعة البرد التى كانت تصـيبه بالرعشة والقشعريرة

كلما لامست المياه المالحة الباردة بشرته الرقيقة ! لم يحاول فى يوم من الأيام أن يتعلم السباحة وها هو الآن يغرق فى عرقه وحيرته واحباطه ويأسه وهو الى جوارها على الفراش كما ولدتها أمها ! كم داعب هذا المنظر خياله ايام لقاءات العربة والشوارع الخالية أو المهجورة ؟! وها هو الآن يتحـــول الى كابوس لا يعـرف كيف يستيقظ منه !!

– أراك شاردا لا تستطيع النطق ولو بكلمة واحدة ؟!

تنبه الى كلماتهـا التى نضحت بسخرية دفينة فحـاول أن يستعيد رباطة جأشه :

– أبدا !! أفكر فى كيفية الحصول على المبلغ من بابا دون أن اثير مخاوفه أو شكوكه !!

– ألم تقل لى انه يمنحك كل ما تطلبه بغير حساب ؟!

– لكننى لم أطلب منه هذا المبلغ من قبل ؟!

– وأنا لا أستطيع الانتظار ثلاثة أو أربعة أشهر حتى يمكنـك ادخاره !

– أعدك باحضار المبلغ مهما كانت العقبات ! وبأسرع ممـا تتصورين !!

– أعرف أنك لن تعدم الوسيلة !

قرر أن يكون رجل الموقف برغم انه لم يعثر على الوسيلة ! انها تمنحه من المتعة ما لم يكن يحلم به ، كما انها تعرض حياتهـا للخطر دون أن تكلفه أية مشقة سوى تكاليف العملية ! فهل يتخلى عنها بهذه البساطة التى يوحى بها جبنه اليها ؟! صحيح أن أمه قد بدأت حملة قبل سفر أبيه الأخير لترشيد ما يغدق عليه به ، لـكن أباه سيعود من الخارج بعد يومين يكفيان للتفكير فى حجة يتذرع

بها فى الحصول منه على المبلغ ! فالأمر لا يحتمل أى تسويف بعـد أن وضع فى بطنها هذه القنبلة الزمنية التى يمكن أن تدمره معها ! كانت تتابع انفعالات وجهه فى صمت فقال لها فى تصميم :

ـ لن أتخلى عنك أبدا يا روح قلبى !

احتوته بذراعيها ومالت به حتى سقطا سويا على الوسادة :

ـ كان عهدى دائما بك هكذا ! والا لمـا سلمت نفسى لك منـذ البداية ! فما بيننا أقوى من الزواج ألف مرة !!

أعاد فحيحها فى أذنه الرغبة الى أطرافه ، وسخونة أنفاسها النبض الى عروقه ، ولهيب شفتيها الهـدير الى صـدره ، وطراوة نهديها الانتفاض الى أعضائه ، فغاص معها فى بحار الشهوة التى أنسته العالم كله بما فيه من وساوس وهواجس ومخاوف خـارج الغرفة حيث كان الجلف الكريه يدخن النارجيلة فى طمأنينة من يظن فى نفسه سيد الموقف !!

التأم شمل الأسرة ترحيبا بعودة ابراهيم بعد غيبة اكثر من شهر باستثناء وائل الذى قبع فى غرفته أمام مكتبه الذى فتح عليه عدة كتب فى وقت واحد ! قال يوسف بصوت هامس لابراهيم وهو ينظر الى باب غرفة وائل شبه المغلق :

ـ لم يعد الأمر يحتمل اى تأجيل او شك ! لابد من مواجهة حاسمة للموقف من هذه اللحظة قبل أن يتدهور الى الحد الذى يتعذر فيه علاجه !

أطفأ ابراهيم سيجارة فى منفضة بلورية أمامه ثم وضع ساقا على ساق ليهزها فى عصبية واضحة وقال بنفس الصوت الهامس الواضح :

ـ يكاد الندم يقتلنى ! جرفتنى نشوة العمل والنجاح بعيدا عن ابنى !! فتصورت أن الحياة مجرد لهث وراء صفقات جديدة !! لكنه عندما واجهنى هذا الصباح بعينين حمراوين ·· ونظرات شاردة ·· ولسان ثقيل !! ادركت كم فرطت فى حقه بالتدليل والاسراف وعدم استماعى الى نصائح حكمت التى طالما الحت على بها ؟! ولذلك فانا انتهز هذه الفرصة كى نتشاور فى الأمر ·· اذ أننى لأول مرة فى حياتى اشعر بحيرة قاتلة بعد ما سمعته من

حكمت عما جرى له فى أثناء غيابى فى رحلتى الأخيرة !! هل يعقل أن نتركه يقضى معظم الليل خارج البيت ؟! هل يمكن أن ندعه يقضى ثلاثة أيام متصلة نائما بحجة أنه يعوض سهر الأسبوعين الماضيين فى المذاكرة ؟!

تهدج صوت الأب وعلت دقات قلبه فتوقف عن الكلام ليلتقط أنفاسه · خرج صوت زوجته مشعا بالكآبة والاحباط :

ـ منذ يومين وأنا أرقبه فى قلق قاتل وعن بعد قاتل أيضا ·· رأيته يسقط الى جوار فراشه فى أعقاب الاستيقاظ !! وعنـدما اقحمت عليه نفسى تعلل بالاجهاد فى المذاكرة ·· فلم أحاول المزيد من الاستفهام بعد آخر مرة حاولت فيها أن أضغط عليه فما كان منه الا أن تشنج وارتعش وصرخ ليخرج ويعود عند الفجر مترب الوجه والملابس كمتشرد ظل يجوب الشوارع والأزقة بلا هدف !

أشعل الأب سيجارة جديدة وهو يطـــرد الآهات مع سحب الدخان :

ـ وهذا الصباح طلب منى ألف جنيه بحجة اجراء عمـرة لسيارته ·· فطلبت منه ارجاء الحديث فى هذا الموضوع الى المساء بحجة ارهاقى ·· حتى يكون مدخلا للموضوع برمته عندما نفاتحه فيه !

همست حكمت بنبرات يائسة مريرة :

ـ لم يعد يحتمل أن يفاتحه أحـــد فى أى موضوع باستثناء حصوله على المزيد من المال الذى لا يشبع منه !!

نظر يوسف فى ساعته بقلق :

ـ فليكن المال هو موضوعه وموضوعنا فى الوقت نفسه !

عبرت عفاف حاجز الصمت بعد متابعة دقيقة للحوار الشائك:

ـ لكن بكل الحرص حتى لا يفلت زمام الموقف من أيدينا !

ثم أشارت الى ابنتها معالى القابعة الى جوارها فى صمت عميق ونظرات حائرة بوميضها الحاد :

ـ اذهبى اليه يا معالى !! قولى له انه أوحشنا كثيرا ونريد التمتع بجلوسه معنا !!

تململت معـالى فى مقعدها الوثير وخرجت مقاطع الفاظهـا متناثرة ، مترددة ، غير منتظمة بين علو وهبوط :

ـ اعفينى يا ماما من هذه المهمة الثقيلة ! فلم يعد يطيق أن يرانى أو يسمع صوتى !

ربتت على كتفها مداعبة فى حنان باسم :

ـ لم أعهد فيك الجبن من قبل ! فهذه المهمة لا يقوم بهـا الا أصغرنا سنا ! يكفى أننا سنوفر عليك مهمة المفاوضات الشـاقة الشائكة !

ـ أمرى لله !

نهضت متثاقلة فى البنطلون الجينز الضيق ! وجدت العيون تتابعها فى قلق ورجاء فهربت منها بالسير الوئيد الى باب وائل شبه المغلق ! دقت عليه بأطراف أصابع يمناها لكن أحدا لم يرد ! همست حكمت نائحة :

ـ أوشك أن يفقد استجابته لما يدور حوله !

لم يعلق أحدهم فى حين واصلت معـالى الدق الرقيق وهى تنظر اليهم فى حرج وضيق ! أشارت لها أمها بحركة من يديهـا تعنى الدخول دون استئذان يمكن أن يضاعف من ارتفاع الحواجز وتراكم الجليـد فى حين ابتسم يوسف دون أن يكبح جمـاح روح الدعابة عنده :

ـ الجبن سيد الأخلاق !

ابتسمت معالى لاستفزاز أخيها فدفعت الباب فى رقة ودخلت لتقف أمام وائل وجها لوجه منذ شهور طويلة ، ولتذهل لشحوبه ونظراته الشـاردة فى عينين حمراوين ، وشـفتيه الذابلتين دون كلمات ، فقـالت له بابتسامة لم ترسمها فى حين انشـغل بقرض أظافره :

ـ كيف حالك يا وائل ؟! أوحشتنى كثيرا ! لم تعد تسأل عنى مجرد سؤال عابر !! كأننى لم أكن فى حياتك فى يوم من الأيام !

نظر اليها فى حرج وحيرة وقد أمسك بسكين لقطع الورق ، يحركها بين يديه ، ويجرى نصلها الأبيض بوميضه على كف يسراه دون وعى منه ! كم تغير وائل ؟! أين الحيوية والانطلاق والبشر والبراءة والأمل والتفاؤل بمستقبل سعيد مشرق ؟! فتح شفتيه كما لو كان على وشك أن يقول شيئا لكنه سرعان ما نكس عينيه ممـا ضاعف من حرجها وثقل مهمتها ، لكن لم تشأ أن تتراجع طالما أن مهمتها قاصرة على استدعائه · فقد أدركت أن مجرد الحديث معـه وليس التفاوض قطرات سم مذاب على اللسان وفى الأذن ! انهـا لن تصلح الكون ولذلك قالت له فى حزم قضى على حنانها الذى لم تستطع كبته فى كلماتها الأولى اليه :

– الأسرة كلها فى انتظارك ! وبابا يريدك بصفة خاصة فى موضوع يهمك أنت شخصيا !!

جاءت كلماته ثقيلة كخطوات من رصاص على رمال ناعمة متحركة :

– وهل ينوى طرح هذا الموضوع الشخصى أمام مجلس العائلة ؟!

بلغت بها الحيرة والمرارة حدا لا يطاق :

– هذا ليس من شانى ! أنا أنقل اليك رغبتهم فى الجلوس معك !

– وماذا ستقولين لهم ؟!

– لن أقول سوى ما سوف تقوله لى ٠٠ حتى اذا لم تقل شيئا على الاطلاق !!

– هل ستقولين لهم أننى لا أرغب فى الجلوس معهم ؟!

– اذا كانت هذه رغبتك فسوف أعلنها ! هذا كل ما فى الأمر !! هيه ٠٠ ما رأيك ؟!

– لماذا تحاولين الضغط على ؟! كان هذا الضغط السبب الأساسى فى الفرقة التى وقعت بيننا !!

– أنت الذى صنعت هذه الفرقة التى حاولت معالجتها مرارا لكننى فشلت !

– هذا كلام فات أوانه !

تراجعت معالى فى اصرارها حتى لامس ظهرها الباب :

ـ لم آت لأضغط عليك او اتكلم فى موضوع فات أوانه ! فانا حريصة على الذين يحرصون على فقط !! هيه ·· ماذا سأقول لهم ؟!

ـ لماذا تصرين على هذا الأسلوب العنيف ؟! أريد الحديث مع بابا على انفراد !!

ـ لا تتصور أن أحدا يريد اقحام نفسه للاطلاع على أسرارك ! انت حر تماما فى حياتك الشخصية حتى لو دمرتها تماما !!

ـ تتكلمين مثل ماما تماما !!

ـ وهل تريد ماما منك أن تدمر حياتك ؟!

ـ وهل تريدين أنت ؟!

ـ اذا كنت مصرا على هذا فلن يوقفك أحد ! كما يبدو انك مصر على عدم الجلوس مع أحد !! عن اذنك !!

تركته فى جلسته الحرجة ولسانه الثقيل يردد بذهن شارد :

ـ لم أقل هذا ! لم أقل هذا !!

نهض فى أعقابها وهو ينظر حوله فى شرود ذاهل وحيـرة من فقد القدرة على اتخاذ أية خطوة فى أى اتجاه ، ثم وجد قدميه تقودانه الى الأسرة المتجمعة ، ونظراتها المتطلعة اليه ، والتى أصابته بقشعريرة كادت أن تعود به الى شرنقتـه ، لكن قدميـــه واصلتا السير المهتز وصوت يوسف يحطم حاجز الصمت الرهيب ووميض العيون الحائرة :

ـ لماذا تريد أن تحرم الجمهور المشتاق من الطلعة البهية ؟!

تربعت ابتسامة بلهاء على وجهه وهو يجلس الى جوار أبيه :

ـ أوشك الامتحان على دق الأبواب وأريد المحافظة على تقديرى !

داعبته عفاف للتخفيف من وطأة الموقف وان لم تخل دعابتها من معنى :

ـ يبدو أنك دخلت فى منافسة مع معالى هذا العام كى تتفوق عليها ·· فهى لا تستذكر محاضراتها بهذه الاستماتة !!

لم يرد سوى بنفس الابتسامة البلهاء فقال أبوه :

ـ من حق أبيك أن يجلس معك ولو لنصف ساعة كل شهر ·· فهو لا يراك كثيرا !!

نظر الى أبيه وكأنه يبحث عن كلمات تائهة وسط أفكار مشتتة متزاحمة ، وحمرة عينيه وشرود نظراته وثقل كلماته سكين فى قلب الأب الذى يكاد يموت فى بؤرة احساسه بالذنب القاتل ! لم يحتمل يوسف وطأة الموقف الثقيل والوقت المهدر فنظر الى الأب وكأنه يستأذنه فى الشروع فيما اتفقا عليه · قال لوائل بصوت قوى الايقاع واضح النبرات :

ـ هل صحيح يا وائل أن تعاطى الأقراص المخدرة وشم الكوكايين والهيروين أصبحا ظاهرة منتشرة بين شباب الأندية والجامعات ؟!

حاول وائل استجماع كل شتات فكره وهو يقرض أظافره فى نهم :

– ولماذا تسألنى انا بالذات ؟! فأنا لا اعرف شيئا عن هـذا الموضوع !!

– بصفتك طالبا فى الجامعة وعضوا فى واحد من اكبر أندية القاهرة !!

– تفوقى هو شغلى الشاغل ! وليذهب المدمنون جميعـا الى الجحيم !!

التفت يوسف الى الـدائرة الأسرية المحيطة به وكـأنه يلقى محاضرة :

– أصبح المستشفى الذى اعمل به مكتظا بحالات مرعبة لم نكن نتصور أن تكون فى يوم من الأيام بهذا الكم وهذا الكيف ! انتقل الادمان كظاهرة فردية الى وباء مخيف مدمر ٠٠ وأصبح الاستثناء قاعدة ٠٠ وخاصة فى جيل الشباب الذين فى سن وائل والذين لم يتنبه آباؤهم فى وقت مبكر للهـاوية التى سقط فيهـا الأبناء ٠٠ ولا أظن أن هناك أبا يقوى ٠٠ حين تنكشف حقيقة الأمور ٠٠ على التخلى عن علاج ابنه مبكرا ٠٠ مهما كان تورط الابن ٠٠ ومهمـا علا منصب الأب ٠٠ ومهما تكالبت عليه شماتة الغير !

صمت يوسف ليلتقـط أنفاسه ولتسأله حـكمت التى لم ترفع عينيها عن وحيدها :

– وهل تحدث كل هذه المصائب فجأة وبلا مقدمات ؟! وهـل كل الأبناء يملكون القدرة على شراء هذه السموم التى اعلم أنهـا باهظة الثمن ؟

– غالبا ما يؤخـذ الأب المنكوب على غـرة ! ذلك أن مروجى هذه السموم يلقون بشباكهم فى كل يوم على عدد أكبر من الضحايا الجدد ٠٠ يجتذبونهم الى الضياع بكل الاغراءات والتيسيرات ٠٠

يبيعون لهم ما يسمى بالتذكرة التى تحوى كمية من المسحوق تكفى لادمان الشمة المدمرة من أول مرة !! ولا يهم أن يدفع الابن فورا ٠٠ يمكنه أن يرهن ساعته مثلا حتى يدبر ثمن السم الأبيض بأية وسيلة ممكنة ٠٠ حتى وان شملت ما يغير من أخلاقيات الابن التى تربى عليها ٠٠ واذا ما استنفد كل الوسائل الممكنة وعجز عن الحصول على السم ٠٠ فانه يرحب بتحرير ايصالات أمانة بما يتراكم من ثمن الأقراص والتذاكر ٠٠ تقدم للأب المنكوب لتضاعف من بلواه اذا ما ابتعد الابن عن قبضتهم !!

صمت للحظات فران السكون كأن على رءوسهم الطير ٠٠ تساءلت حكمت وهى تتابع ابنها الذى انهمك فى قرض أظافره وكان ما يدور لا يعنيه :

ـ ومادامت الأمور قد بلغت هذا الحد فان الابن الضائع يمكن ان يرتكب أية جريمة فى سبيل الحصول على المال اللازم !! أى يمكن أن يصبح لصا أو قاتلا دون أن يدرى !!

اهتز وائل فى مقعده على أثر قشعريرة مفاجئة اجتاحت مراكز الاحساس عنده ، لكن الجميع واصلوا اصغاءهم ليوسف الذى واصل محاضرته وكأنه يريد الانتهاء منها بأسرع ما يمكن :

ـ أية مصيبة يمكن أن تحدث نتيجة للادمان الذى يجرى فى دماء الابن ويطبق على أنفه فى اليوم الثانى أو الثالث من بدايته ٠٠ ويكون التراجع بالغ المشقة ٠٠ ومن ثم يتوالى انخراط الابن فى حلقات الادمان التى تقود خطاه مع أصدقاء السوء الى أوكار هذه السموم فى الكحكيين والباطنية والجيارة وخارطة أبو السعود والدراسة ٠٠ فهو يسلم قياده تماما لمن يسلبونه مستقبله وعمره !

توقف وائل عن قرض أظافره فجاة ووجد لسانه يتساءل دون اذن منه :

ــ وكيف عرفت كل هذه الحقائق ؟!

ــ انها كلها حالات أشرف على علاجهــا بالمستشفى ٠٠ ولم تكن هذه الحالات لتصل الينا لولا أن الله قيض للآباء المنكوبين من ابلغهم بنكبتهم ٠٠ ولولا أن الحالة الصحية المتدهورة للأبناء قد فضحت حقيقتهم ٠٠ فغالبا ما يجد الابن نفسه فى مواجهة الأب أمام اختيار من اثنين كليهمــا قاس ومر ٠٠ اما أن يقــاوم بكل الاصرار الاعتراف للأب برغم كل الشواهد٠٠ ويتركه لآلام نفســية عاصفة ٠٠ وهو ما لابد أن يحدث تأثيرات عنيفة داخل الابن يعرف انه لن يقوى طويلا على احتمالها ٠٠ واما أن يريح أباه ويعترف٠٠ وفى هذه الحالة يتملكه الرعب من أن يصيبه ما أسكنه المروجون فى روعه ان هو فكر يوما فى الاقلاع عن السم ٠٠ أى الرعب من أن يصاب بانهيار عصبى قد يسلمه الى الجنون !!

كاد وائل أن يجن عنــدما شعر بالنظـرات كسهام مسمومة تمزق ثيابه وتتركه عاريا أمامهم ! فكر فى العودة الى قوقعته لكنه لم يجد سببا يتذرع به ! لعن معالى التى دفعته الى هـــذا المأزق وتمنى أن تنشق الأرض لتبتلعها ! شعر بحنين قاتل الى هناء التى ترزح الآن تحت وطأة ما ارتكبه معها والتى تنتظر ما سوف يعود به لانقاذها من ورطتها أو ورطته ! لكن الأمور تبدو هذه المرة مختلفة عما كانت عليه ! فلأول مرة يؤجل أبوه البت فى منحه المبلغ الذى طلبه منه ! خرج وائل من طيــات خواطره وأمواج هواجسه على صوت يوسف :

ــ وفى معظم الحالات يفضل الابن الذى يتملكه الرعب أن يمضى فى خداع الأب ٠٠ برغم تألمه الشديد لحــالته ٠٠ بل وقــد يبلغ فى خداعه حد المطالبة باجراء تحليل شامل لدمه كى يبرىء ساحته ٠٠ اعتقادا منه أنه لا يوجد فى مصر تحليل للدم يمكن أن يكشف للطبيب ادمانه ودرجته !

لم تتوقف حكمت عن تساؤلاتها الحائرة المرة :

ـ ومن الذى أوحى اليه بذلك ؟!

ـ المروجون طبعا !

اجتاح وائلا حنين قاتل لهناء عندما اشتاقت دماؤه لبعض الأقراص أو شمة تعيد اليه مزاجه الذى تعكر ، وترخى أعصابه وعروقه الآخذة فى الانكماش القاتل ، ومع ذلك لم يستطع منع أذنيه من الانصات ليوسف :

ـ وقد يحدث ويضيق الأب الخناق حول ابنه رحمة به ·· أو قد ينهار احتمال الابن لرؤية أبيه يعانى الحالة التى تسبب فيها ويأتى الاعتراف متأخرا كثيرا مصحوبا بالمكابرة فى أنه لم يصل الى حد الادمان ·· وأنه قادر وحده بغير الاستعانة بطبيب أو دخول مستشفى تفضح أمره ·· على هجر الادمان ·· وتبدأ الأسرة التى يتحجر الدمع فى عيونها اخفاء لمصابها فى محاولات مستميتة لاقناع الابن بأنه لابد من الطبيب والمستشفى وتنقية دمه من السموم التى تسكنه لمدة أسبوع يظل فيه قابعا فى حضن الأسرة أو مقيما فى المستشفى بعيدا عن مكامن الخطر محتميا بالرغبة الصادقة فى العلاج من نداء السم الأبيض !

تعالت دقات قلب حكمت مع تساؤلها :

ـ وما العمل اذا كان احساس الابن قد أصيب بالبلادة التى تدفعه فى بعض الأحيان الى التبجح واهانة أبويه ؟!

ـ فى هذه الحالة ستكون المصيبة مضاعفة ·· وخاصة اذا كان الابن المدمن يوهم نفسه بأعلى درجات السعادة وينتابه احساس بالتعالى والعظمة وبأنه فوق الآخرين وفوق كل المشاكل والحقائق التى تتضاءل أمام عينيه بحيث يصبح كل شىء بلا معنى !

لاحظ الأب توتر ابنـه المكبوت ورغبتـه الدفينة فى الهروب بجلده من الحصار الذى يضيق الخناق حوله لحظة بلحظة ، فسأل يوسف :

ـ لكن ماذا يمكن أن يحدث اذا جاء موعد الجرعة التـالية ولم يتمكن المدمن من تناولها ؟!

ـ الاجابة على هذا السؤال مفزعة مرعبة !! تحدث تغييـرات خطيرة فى الجهاز العصبى ثم خلل فى الجهاز العضوى ·· فجأة تنساب الدموع بغـزارة من عينى المدمن ·· ويصـاب برشح فى الأنف ·· وتتسع الحدقتان ·· يرتعش بشـدة ·· وتنتـابه حـالة بشعة من القلق والأرق والغثيـان والقىء ·· ويرتفع ضـغط دمه بسبب انقباض القلب والشرايين ·· وتتقلص عضلات بطنه ويتحول جسده الى جحيم متحرك متقلب !!

كانت نظرات الأب لابنه قذائف ملتهبة وهو يواصل تساؤلاته :

ـ وماذا يحـدث اذا انقطع المدمن عن تنـاول الجرعة فى موعدها المحدد وظل على هذه الحال عدة أيام دون علاج ؟!

قال يوسف وكأنه ينهى مرافعته أمام هيئة المحلفين :

ـ الاجابة هذه المرة يا عمى اكثـر فزعا ورعبـا ·· فاذا لم يسعف المدمن بالعلاج فانه يصاب بالجنون ·· أو يموت !!

ران صمت رهيب أحاطت فيه النظرات بوائل الذى وجد نفسه مدفوعا للتساؤل دون تفكير :

ـ هل اجتمعنـا اليوم لمناقشة هـذا الموضوع خصيصا ؟! أليست هناك طريقة أخرى للترحيب ببابا بعد غيبته الطويلة ؟!

واجهه يوسف لأول مرة :

ـ ولا ضرر من أن يتسلح الانسان بالمعرفة فى موضوع خطير كهذا يوشك أن يصبح وباء !! اننا لا نضيع وقتنا فى ثرثرة فارغة !

واصل وائل مقاومته المستميتة لاحساسه بالضعف القديم كلما واجه يوسف فى حين راوده شبح الجلف وشاربه الكث وأظافره السوداء الطويلة فى تلك الليلة الغريبة :

ـ هذا الوباء ليس له وجود بين أبناء الطبقات الراقية !!

سعد يوسف لنجاحه فى جر ساقه الى بؤرة الحوار :

ـ لا تحاول أن تخدع نفسك يا وائل ·· صحيح أن هذا الوباء منتشر بين الفئات الطفيلية التى وجدت الثروات المفاجئة تهبط عليها خلال السنوات الأخيرة ·· مثل بعض التجار والمضاربين فى الصفقات والحرفيين والمقاولين وأصحاب معارض السيارات ·· لكن الأخطر من هذا أن هؤلاء نقلوا ادمانهم الى آخرين ·· شباب مثقف ·· أبناء أشخاص يعملون فى مراكز مرموقة انحدروا ليصبحوا مدمنين ·· المال السايب جعلهم يشترون التذكرة بمائة جنيه ·· وهى تزن حوالى ربع جرام هيروين ·· ذلك أنه مع استمرار الادمان تكاد التذكرة الواحدة لا تكفى المدمن فى المرة الواحدة ·· وعندما تنفد الأموال ويمتنع الآباء عن الدفع بلا حساب ·· تمتد أيدى الأبناء الى السرقة ·· وبعضهم يتحول من مدمن الى وسيط ينقل ويهرب الهيروين لحساب المروجين والمهربين من أجل شمة واحدة !

ـ انك تخاطبنى كما لو كنت تتهمنى بتهمة تعاطى هذه السموم !!

استمر يوسف فى زحفه آملا أن يدق المعاقل الأخيرة :

ـ كلامى لا يحمل أى اتهام لك !! وانما الخوف على مستقبلك من الضياع !

– ومن قال، ان مستقبلى مهدد بالضياع ؟!

– كل شيء جائز فى هذا الزمن المجنون !

ضغط وائل على أعصابه ليكبت نداء الجرعة التالية وعواءها داخله :

– أسلوبك فى الحديث أصبح فى منتهى الغرابة يا يوسف !

تكهرب الجو وشحن بنذر مخيفة لاحتكاك غير متوقع فقال الأب لابنه :

– فكرت يا وائل فى موضوع الألف جنيه لاصلاح سيارتك·· فآثرت أن أشترى لك سيارة جديدة تماما بمجرد نجاحك بتفوق فى آخر العام كما وعدتنى ·· وبذلك أوفر عليك ضياع الوقت والجهد الى جوار الميكانيكى فى وقت أنت فى أشد الحاجة فيه الى كل دقيقة بعد أن اقترب الامتحان بالفعل !

ثبت وائل عينيه على البساط الفاخر الأخضر تحت حذائه اللامع وقال :

– لا أعرف لماذا يصر الجميع على معاملتى كطفل لا يعرف مصلحته ؟!

ظهر الحزم واضحا على نبرات الأب :

– يجب على الانسان أن يتقبل النصيحة من المهد الى اللحد طالما كانت فى محلها !! كما يجب أن يواجه الحقيقة مهما كانت مرة ! فاذا كان خداع الآخرين سلوكا بشعا ·· فان خداع النفس أبشع منه !!

تحول وائل الى كتلة متفجرة من الضيق والاحباط والأوتار المشدودة :

ـ ومن قال اننى أخدع نفسى يا بابا ؟!

ـ أصارحك القول يا وائل بأن احساس الذنب يقتلنى كلما لمحت حمرة عينيك وشرود نظراتك وثقل لسانك وشحوب وجهك !! لا أعرف السبب فى كل هذه التغيرات التى طرأت عليك ؟!

ـ قلت لكم ألف مرة انه نتيجة السهر والاجهاد فى المذاكرة ؟!

كانت معالى على وشك أن تقول انها ليست أول سنة يجتهد فيها ولم تطرأ عليه هـذه الأعراض الغريبة من قبل ولكنها آثرت الصمت وخاصة أن خالتها عبرت عما يجول بخاطرها :

ـ اذا كنت تفعل بنفسك كل هـذا وأنت لاتزال فى السـنة الثالثة ؟! فمـاذا ستكون الحال عنـدما تنتقل الى البكالوريوس باذن الله ؟! هل ستنتحر ؟!

ـ لابد أن أرتفع بتقديرى ٠٠ أو على الأقل أحافظ عليه !!

لم يحتمل يوسف سأم المداورة والمحاورة فقرر اطـلاق آخر سهم فى جعبته وخاصة عندما شعر بأن ذكاءه قد أهين بالفعل :

ـ أنا طبيب يا وائل ٠٠ وأعرف جيدا أعراض السهر والاجهاد التى ليس بينها ثقل اللسان على أية حال من الأحوال !

تمنى وائل لو كان فى تلك اللحظات الصـاعقة بين ذراعى هناء ليبكى طويلا وتجفف دموعه بأصابعها الرقيقة الحانية ! ماذا سيفعل الآن وهو الذى ظهر أمامها رجلا للموقف كله ، ووعـدها باحضار المبلغ ؟! لا أحد يعلم مدى ورطته فى حين يتفنن يوسف فى تعذيبه كما تفنن من قبل فى اشعاره بضآلته وضعفه ! كان احساسه صادقا منذ البداية عندما ظن انهم تجمعوا لمواجهته بل لمحاكمته ! سأل يوسف ونهر من المرارة والحنق والسخرية يكتسح نبراته :

– وما هى الأعراض التى تنتابنى ·· والمرض الخطير الذى تدل عليه ؟!

القى يوسف بالقنبلة الأخيرة فأصابت شظاياها كل الجالسين:

– انها أعراض الادمان يا أستاذ وائل ! وأرجوك لا تتصور أننا بهذا القـدر من الجهل أو السذاجة أو الغبـــاء حتى تواصل الانكار بهذا الشكل المكشوف !

انتصب وائل واقفا فى ارتعاشة أحاطت بكيانه حتى لا تطفـر الدموع من عينيه أمامهم وصرخ فى نشيج مكتوم :

– لن أتناقش فى هذا الموضوع أكثر من هذا !! كما أنه ليس من حق أحد أن يفرض وصايته على !!

انطلق كالسهم صوب غرفته التى صفق بابها خلفه وسكون رهيب عميق جثم على وجوه الحاضرين ، لكن الأب قطعه بأسلوب رجل الأعمال عندما يقرر حسم الموقف دون تردد ، وهو يرى حيرة زوجته التى تساءلت فى صمت : وما العمل الآن ؟! قال :

– فقد وائل القدرة على حسم أى موقف بعـد أن ترك قيـاده لهذه الفتاة التى تدعى هناء !! وأنا من أنصار الحلول الجذرية !! انها أس الفساد ولابد من مواجهتهـا دون علم وائل !! ولن أعـدم وسيلة للتعامل معها !!

فتحت معالى فمها أخيرا :

– لكن عهد غادة الكاميليا يا عمى ذهب الى غير رجعة !! لن تضحى من أجل وائل أو غير وائل !!

– أعلم هذا تماما يا معـالى !! فأنا لا أصـدر قراراتى على أساس ما يرد فى الروايات العاطفية ولكن على أساس الواقع مهمـا كان بشعا !!

سألته حكمت فى لهفة من نوع جديد :

ـ انها فتاة خطرة ويمكن أن تستغلك أسوأ استغلال دون أن تبتعد عن وائل !!

ـ هـل نسيت يا حكمت أننى خبرت السوق أكثـــر من ربع قرن ؟! وأعرف كيف أتلاعب بمن يحاول التلاعب بى !! لن أسافر مرة أخرى قبل أن أحسم الموضوع برمته !! فأنا لا أحتمل احساسى القاتل بالذنب أكثر من هذا !! ليس لى ابن سوى وائل ٠٠ واذا فرطت فيه فاننى أكون قد فرطت فى حياتى نفسها !!

ثم التفت ابراهيم الى معالى قائلا بنفس التصميم :

ـ أريد منك يا معالى أن تعرفى عنوان هذه البنت !

شهقت حكمت هامسة فى تساؤل :

ـ وهل تريد الذهاب الى الأفعى فى وكرها ؟!

ـ أرجوك يا حكمت ! فكم طالبت أنت نفسك بتخفيض المصروف لحماية وائل ؟! لا أرى مبررا لخوفك على الاطلاق !! فلابد أن نخوض معركة انقاذ وائل بكل الأساليب والأسلحة الممكنة !! فقد تغاضيت كثيرا عن نصائحك ومخاوفك السـابقة وظننتها مجـــرد هواجس لا أساس لها من الصحة ! كنت أظن أن تربيتنا لا يمكن أن تضـيع هكذا هباء وفى غمضة عين ، لكننا فى زمن يوشك فيه الانسان أن يفقد ثقته فى أصابع يده ! ومع ذلك فأنا لست من أنصار البكاء على اللبن المسكوب لأن المستقبل هو قضيتى وشغلى الشاغل ٠٠ هكذا علمتنى الحياة !!

تساءلت عفاف بعد متابعة متأنية قلقة للحوار الدائر :

ـ أشك فى أنه يجهد نفسه فى المذاكرة كمـــا يقول !! فقـد اكتشفت معالى أنه تعدى نسبة الغياب فى معظم المواد وبذلك لا يحق

له دخول الامتحان فيها !! الا اذا قـــدم عذرا معتمـــدا يبرر به غيابه !!

واصل ابراهيم زحفه وبريق الاصرار والتحـدى يومض فى عينيه :

– أفضل أن تضيع سنة دراسية من حياته الجامعية من أن تضيع حياته كلها ! المهم الشروع فورا فى اتخاذ الخطوة الأولى !

سرت روح جديدة شحنت الحاضرين بمزيج من الخوف الدفين والأمل الوليد فى حين قالت حكمت :

– انه زمن غريب ! يجبرنا على خوض معارك لم تخطر لنـا على بال !!

علق زوجها وقد قبض بكفه على مسند المقعد :

– ونحن لها ! فالحياة تحديات متصلة ! المهم كيف نواجهها !!

بدت بوادر ابتسامة فى عينى يوسف سرعان ما انتقلتعدواها الى وميض العيون القلقة الحائرة !

- ٩ -

أصبح وائل على شفا هاوية فتحت فاها فجأة لتطويه فى جبها !
وجد نفسه يواجه العالم كله ممثلا فى هناء ، وأسرته عن بكرة أبيها وهو الذى لم يمارس المواجهة قبل ذلك فى اية صورة من صورها !
كانت كل رغباته أوامر سرعان ما يلبيها الآخرون لكنها تحولت الى سياط تلهب ظهره ليل نهار ، ولولا استمرار مصروفه لكان قد وضع حدا لحياته التى فقدت كل مذاق ومعنى لها مع نذر نفور هناء منه !
فلايزال بالمصروف قادرا على جلب القرص المخدر والتذكرة الساحرة، أما الشق الآخر من الادمان فلم يعد فى متناول يده بعد أن ظهر امام هناء بمظهر الصبى الغر الذى يعجز عن تنفيذ وعوده ، وان كان قد حمد الله على أنها أجرت عملية الاجهاض قبل أن يستفحل أمر الجنين وذلك اعتمادا على مواردها الخاصة الغامضة !

كم قتله احساس المهانة والضالة وهو يرى السخرية الناضحة فى عينيها ؟! لم تقل له انها أسقطته من حسابها ، ولم تطلب منه مفتاح الشقة تأكيدا لقطيعتها !! لكنها أصبحت تتعلل بالاجهاد والارهاق والضعف نتيجة للعملية التى أجرتها فى عيادة أحد الأطباء التى غادرتها بمجرد الانتهاء منها ! ولولا ميمى ترافولتا ذلك الجاف ذى الجثة الضخمة والأظافر السوداء والشارب الكث لما وجدت من ينقلها الى بيتها !!

كم قتله الندم على هروبه من مواجهـــة موضوع العمليـــة الجراحية معها ؟! على الأقل كان فى امكانه انتظارها ونقلهـا الى بيتها بدلا من ذلك الجلف الذى طالما ذكرت أفضاله عليها ، بل اكدت أنه هو الذى دفع معظم تكاليف العملية ! لكن وائلا لا يستطيع أن يفتح فمه بكلمة ، وهو الذى تخلى عنها فى أحرج لحظات حياتهـا التى كانت نتيجة طبيعية لعلاقته بها !! كان يود الهروب منهـــا والالتصاق بها فى الوقت نفسه ! لم تجتحه فى حياته حيرة قاتلة مثل هذه من قبل !

حتى موقفه من ذلك الجلف كان زاخرا بالتناقض ! ففى لحظة واحدة كان يشعر تجاهه بالارتياح والضيق ، بالسعادة والتعاسة !! الارتياح والسعادة لأن ثمة علاقة غامضة وطيدة بينه وبين هنـاء مما يخفف من وطأة احســاسه بالذنب ، فربما كــان الجنين نتيجة لعلاقة الجلف بها ! والا ما سر اهتمامه الشديد بهـا ورعايتهلهـا يوم اجراء العملية ؟! بل انه فهم من طيات كلماته أنه يعشق هناء وعلى استعداد لبذل النفيس والرخيص من أجلها ! وربمـا لم يكن هناك جنين على الاطلاق ، وأن المسـألة لا تعدو كونهـا مناورة للحصول على المزيد من المال بعد أن تحولت هناء الى بالوعة يصب فيها كل ما معه وكل ما يمكن أن يحصل عليه من أبيه !

ومع ذلك فان بعض الظن اثم ! ذلك أن مصيبته تتمثل فى انه ليس واثقا من شىء ! فقد امتزج الوهم بالواقع بحيث لم يعد يفرق بين هــذا وذاك ! وفى الوقت نفسه لا يستطيع مصارحتها بمـا يدور داخله ، وخاصة أن نفورها أصبح سما زعافا فى عينيه وأذنيه ولم يقل لها بعد أية كلمة يمكن أن تمسها من قريب أو بعيد ! وذلك برغم صدها الخفى له ! كان على استعداد ليلتمس لها كل الأعذار !

أما احساس الضيق والتعاسة فكان نتيجة لادمانه لهناء التى لا يحب أن يشاركه فيها أحد ! فما بالك بهذا الجلف القادم من قاع المجتمع ليستولى على هذه الحورية الفاتنة ابنة الأسرة الراقية وسليلة الأصل الارستقراطى ؟! حاول أكثر من مرة أن يوحى اليها بأن مقامها ومركزها الاجتماعى أرقى منه بكثير ، لكن الكلمات كانت تتوقف فى كل مرة عند فتحة حلقه ، فيقنع من الغنيمة بمزيد من الالتصاق بها والتفانى فى عشقها لعله يستأثر بها فى يوم من الأيام ! لكن الزمن أتى بعكس ما كان يتمنى تماما ورجحت كفة الجلف بحيث أوشك وائل على أن يطرد من الجنة ! فهل تتفاقم الأمور أكثر من هذا ويجد نفسه فى لحظة رهيبة صريع هناء ؟! على كل حال لم يعد لديه سوى الأمل ليتعلق به حتى لو أصبح مجرد وهم كاذب !! هذا هو الامتحان الذى يتحتم عليه أن يجتازه بنجاح اما امتحان الكلية فيأتى فى المرتبة الثانية !!

عاش وائل على أمل ان يحصل من أبيه على المبلغ المطلوب ولو بالتقسيط ، وخاصة أن أباه قرر البقاء فى مصر هذه المرة حتى ينتهى من عدة مشروعات معلقة ! لكن الحيرة سرعان ما طمست الأمل تحت وطأة الأسلوب الجديد الذى انتهجه أبوه فى معاملته له ! لم يحصل منه سوى على الكلمات المعسولة والابتسامات العذبة والتمنيات الطيبة بالتوفيق والتفوق فى امتحان آخر العام ! بل انه لم يفاتحه فى موضوع الادمان الذى أثاره يوسف لأول مرة على مسمع من الجميع وبصراحة لم تقدر عليها أمه نفسها ! فهل رفض تصديق مزاعم يوسف وأن الأمر عنده لم يتجاوز نطاق مخاوف الأب التقليدية على مصير ابنه ومستقبله ؟! أم انه يدبر شيئا فى الخفاء وهو رجل الأعمال الماهر الذى يبطن ما لا يظهر ، ويظهر ما لا يبطن ؟! أم أن ثقته فى ابنه وطيدة بحكم أن سفره المستمر منعه من متابعة المتغيرات الأخيرة ؟! لماذا تغرقه أمواج الحيرة والضياع

والتشتت والتمزق حتى فيما يتصل بأقرب الناس اليه واحبهم الى قلبه : أبيه ؟!

لماذا يصر الجميع على حصاره لدرجة الاختناق ؟! اسرته عن بكرة أبيها من ناحية وهناء وجلفها من ناحية أخرى ؟! كيف يخرج من بين شقى الرحى ويصلح من صورته فى نظر هناء أولا ؟! لا شك أنها ستكون سعيدة لو أحضر لها المبلغ الذى عقدت الأمل عليـه !! لكن كيف ؟! انه لا يستطيع الانتظار حتى يوفر المبلغ بعد أن أصبحت الأقراص والمساحيق تستهلك كل دخله الشهرى ! لابد له من ثغـرة لينفذ منها ويلتقط أنفاسه اللاهثة ! لكن كيف ؟! العين بصيرة واليد قصيرة يا هناء !! لو كان فى امكانه انزال نجوم السماء لتقبض عليها بأصابعها الحانية الرقيقة لفعل !! لكنها لا تريد نجوم السـماء بل تريد ألف جنيه ! هل يمكن أن يكون يوسف قد أوحى لأبيه بعدم تلبية طلباته الطارئة ؟!

لابد أن يحطم الحصار الحديدى بطريقـة أو بأخـــرى حتى لا يختنق ! فليقاوم خدر الأقراص ونشوة المسحوق حتى يستجمع شتات تفكيره المبعثر ! فلابد من مخرج وبأى ثمن وبأسرع ما يمكن عليه أن يقهر الضآلة والمهانة والضعف والتردد والاهتزاز ويؤكـد لجميع الأطراف المعنية أنه رجل له رأى وله موقف حتى لا تتشفى فيه معالى ! لن تضيع من يديه هناء مهما كان الثمن !! فهى قضيته التى لن يخسرها بحال من الأحوال !

فى ظلام غرفته وبعد منتصف الليل ومضت فى السقف فكرة كالبرق فى ليلة مطيرة مشحونة بهزيم الرعد ! اعتاد أبوه أن يترك كميات من الأوراق المالية لا بأس بها فى درج مكتبه الـذى يغلقـه بمفتاح يضعه اما فى جيب البيجاما أو الروب أو الحلة ! لم يحدث أن طرأت مثل هذه الأفكار على ذهنه من قبل ! لكن ما العمل طالما

أن أحدا لم يترك له خيارا آخر ؟! ان أسرته لا تنظر اليه الا نظرتها الى طفل مدلل لا يعرف طريقه فى الحياة لأنه يفتقر الى الرأى السديد ، والرؤية الثاقبة ، والموقف الحاسم ، فهل يقدم بنفسه لهناء الحجة العملية لتنظر اليه نفس نظرتهم ؟! لكن ماذا سيكون موقفه لو وقعت التهمة على الخادم أو الطباخ أو البواب ؟! هل سيقف مكتوف اليدين وهو يرى الظلم يحيق بهم وقد يؤدى الى طـردهم وقطع عيشهم على أحسن الفروض ؟! لـكن لماذا يشـغل نفسه من الآن باحتمالات قد لا تحدث على الاطلاق ؟! كما أنه من المحتمل أن تضيع بعض الأوراق المالية من أبيه !! ألا يحدث هذا لكثير من رجال الأعمال ؟! ومع ذلك فان الأمور اذا تأزمت فسوف تكون لديه القدرة على الاعتراف الكامل بعد أن يبحث عن ذريعة مناسبة تحفظ له ماء وجهه !

ارتخت أعصابه وتمـدد جسـده فى الفـراش وهو يجتر فى مخيلته كل تفاصيل غرفة المكتب : الدرج الأول على اليمين والذى يحتوى على المراد ، والذى يترك فيه المفتاح أحيانا ، الروب الـذى يعلق أحيانا على مشجب ركنى وفى جيبه سلسلة المفاتيح ، وان لم يكن الروب فجاكتة الحلة ! هل يمكنه فتح الدرج أثناء وجـــود المفتاح فيه ؟! لكنها خطوة من الخطورة المحققة لوجود الأب فى هذه الفترة فى غرفة النوم أو فى الحمام ، ويمكن أن يعود بين طرفة عين وانتباهتها ! كان يمكن ألا يشك الأب فى جلسته المريبة الى المكتب لو رآه لولا أنه طلب منه ألف جنيه ولم يفز بها ؟! هل يمكن الحصول على المفتاح لفترة قصيرة بحيث يظن الأب أنه ضاع منـه ثم وجده تحت المكتب أو المقعد أو المشجب أو أى شىء آخر ؟! لا .. حركة مثل هذه سوف تثير الشبهات وسوف تورط الخدم فى ضجة أو فضيحة لن ينجو منها هو شخصيا !!

جلس فى فراشه وقد انتصب ظهره على غير عادته ! لعلهـا فكرة أخرى كوميض البرق فى ليلة الرعد والوحل ! حكى له زميل فى جلسات الادمان كيف سرق أباه بتطبيق فكرة رآها فى أحد الأفلام الأمريكية ! أتى بقطعة من الصلصال وطبع عليها رسم المفتـــاح فى زمن لا يزيد على ثانية ! وكان مفتاح خزانة من الصلب العريق ! وبعد ذلك أرشده ميمى ترافولتا الى محل يصنع مثل هذه المفاتيح وان كان أجره غاليا لمعرفة صاحبه بالهدف الحقيقى للزبون الذى لن يعثر على محل اخر بسهولة !

هذه هى أكثر الخطط ضمانا وأمانا ! ولن يعتبر نفسه لصـا بعد أن عاهد نفسه أن يعتبر المبلغ مجرد سلفة سوف يردها لأبيه فى أقرب فرصة ، حتى لو اضطر الى تقسيطها من دخله الشهرى ! فماذا يمكن أن يفعل غير ذلك وقد أعيته جميع الحيل ؟! مكره أخاك لا لص !! وألف جنيه لن تفقر الأب المليونير الذى يحيا حياة الملوك ويترك وحيده نهبا لمحنة قد تقضى عليـه تماما ، ولا يقدم له سوى الكلمات المعسولة والتمنيات الأبوية بنجاح وتفوق فى نهاية العام ؟!

استرخى فى فراشه وهو يحدق مبتســما فى السقف الذى تسللت اليه أولى بشائر الفجر مع دفء الربيع السارى فى الجدران والأغطية !

انتهز ابراهيم فرصة وجود ابنه فى البيت بصفة شبه مستمرة محاولا التظاهر بالاجتهاد فى المذاكرة ، لكنه اكتشف من طرف خفى فى أكثر من مرة أن الكتاب المفتوح أمام عينيه الحمراوين كان آخر شىء فى الوجود يمكن أن يلفت نظــره ! فى مرة كان شـــاردا ، وأخرى كان فيها ذاهلا ، وثالثة نائما ، ورابعة مكتئبــا ، وخامسة مشدودا متوترا يكاد يبكى ! وأحيانا كان يتحرك ذهابا وإيابا بين غرفته وغرفة المكتب بحجة الهروب من الركود والملل والشرود الذى قد يصيبه نتيجة للقبوع فى مكان واحد بين جدران أربعة ، كما أنه اعتاد الجلوس الى المكتب الكبير لبعض الأحاديث التليفونية حول آخر المحاضرات بعد أن كان يحمل التليفون الى غرفته التى يغلق بابها فى حرص شديد ! وكــأنه يريد أن يقول للجميــع أن ظنونهم حوله سيئة وفى غير محلها !

سعد ابراهيم لهذه المتغيرات برغم كل شىء ، فسوف تتيح له على الأقل تدبير لقاء سرى مع المدعوة هنــاء دون علم ضحيتهــا ، وسيعرف كيف يجعله سريا وحاسما ومؤثرا ! فهى ليست أعتى من حيتان السوق الذين اعتاد التعامل معهم ـ بل واصطيادهم ! لكن قبل أن يقرر أى شىء عليه أن يدرس الموقف على الطبيعة حتى يعرف مواقع أقدامه التى يجب أن تخطو فى الطريق الصحيح برغم كـل الأشواك والحساسيات والمخاطر والمحاذير !

مسح ابراهيم بعينيه جانب العمائر الشاهقة التى تطل على فرع النيل الصغير الفاصل بين المنيل ومصر القديمة ! كانتسيارته الذهبية الفاخرة تتهادى لافتة نظر الشباب السائر على الطوار أو المتسكع على الكورنيش ! كانت الساعة قد جاوزت الثامنة مساء لتمتزج سمرة المساء بدفء الربيع السارى فى الأشجار الباسقة والوجوه النضرة وصفحة النيل المتهادى فى وقار وجلال ! التقطت عيناه العمارة المقصودة كما وصفتها له معالى تماما ٠ وعندما سار بمحاذاة الطوار ليتأكد منها لمح رقمها !

هبط من السيارة واذ بقلبه يدق دقات أزعجته واهتز لها ! فمن العار أن يتسلل اليه القلق من لقاء فتاة فى سن ابنه ! كان يود أن يلقى أباها أو أمها لكن تحريات معالى أكدت له أنهما صرفا النظر عنها منذ زمن ليس بالقصير ، وأنها تعيش بمفردها فى شقة جدتها التى رحلت هى الأخرى ! عجب ابراهيم لأمر هذا الجيل الضائع البائس الحائر الذى حرم من دفء الأسرة التى اعتبرها هو فى شبابه سلاسل تعوق حريته وانطلاقه ! كانت أسرته كادحة فقيرة لكن جميع أعضائها كانوا يرفلون فى حلل الحنان والود والمحبة والتعاون والوفاء المتبادل ! لكن يبدو أنه عصر انتهى الى غير رجعة !

طار به المصعد حتى الطابق العاشر ، واذا به أمام أربعة أبواب مغلقة فى صمت مطبق لم يجرؤ ضجيج الشارع وصخب الحى على بلوغه ! بحث عن رقم الشقة فى الضوء الخافت ثم ضغط على زر الجرس فصدح بموسيقاه وسرعان ما فتح الباب ليبين عن هناء التى بدا وجهها فى منتهى البراءة التى امتزجت بالذبول والشحوب والدهشة لهذا الكهل الذى يدق بابها ٠ أضاءت المصباح المعلق فوق الباب فقال لها شىء غامض داخلها أن ملامح الكهل الأنيق تذكرها بوجه وائل ، لعله أبوه ٠ تساءلت :

ـ نعم ؟!

تساءل بدوره فى حرج هامس رددته الجدران الصامتة :

ـ شقة الآنسة هناء ...

قاطعته قبل أن يكمل كلماته :

ـ آسفة !! العنوان غلط ! ليس هنا أحد بهذا الاسم !!

شعر أن مهمته الحرجة ستكون أصعب مما تصور فى مواجهة هذه الحورية الرمادية الفضية اللامعة برغم شحوبها ، والتمس لابنه المراهق العذر فى الوقوع فى براثنها ! نظر حوله ثم أخرج ورقة من جيبه قائلا فى دهشة :

ـ عجبا !! انه العنوان المكتوب بعينه !!

ـ ومن أعطاك هذا العنوان ؟! لابد أن ترجع اليه !!

سعد ابراهيم لفتحها باب المناقشة دون أن تدرى ، ولثقتــه أنها هى بلحمها وشحمها لأن ملامحها الفضية الرمادية الشــهباء لا تتكرر بسهولة بين المصريات السمراوات الدافئات ، وهى تمــاما كما وصفتها معالى . استطرد :

ـ أعطانى ابنى وائل هذا العنوان .. وهو متأكد منه !!

ـ لا أعرف أحدا بهذا الاسم !

ـ طالما أنك لست هناء فمن الطبيعى الا تعرفى طالبا فى كلية التجارة باسم وائل !! على كل حال !! فقد سبقته الى هنا ! ولعله الآن فى المصعد الينا !!

اخرجت جدائلها الذهبية من الباب ونظراتها على المصعد :

ـ المصعد فى مكانه لم يتحرك !!

ـ سوف يستدعيه حالا !!

لكن المصعد فى اللحظة نفسهـا هبط ليلبى أمر من طلبـه ٠ اهتزت هناء اهتزازة حاولت اخفاءها لكن العين الخبيرة المـدربة ادركت أن القلعـة ليست مستعصية على الهجوم الخبيث الـذكى فقال مبتسما فى ثقة :

ـ ألم أقل لك ؟! انه ابنى وانا ادرى به !!

ـ ولماذا طلب حضورك معه ؟!

ـ ولماذا تسألين طالما انك لست الآنسة هناء ؟!

تلعثمت وطفحت حمرة باهتة على وجهها :

ـ لا أعرف !! مجرد سؤال عابر لا معنى له !!

ـ لكننى أعرف ! والسؤال له اكثر من معنى ! فانت الآنسة هناء ٠٠ ولا أعرف لماذا تنكرين نفسك امام من هو فى سن ابيك ٠٠ أو الذى يشرفه أن يكون عمك أو اباك ؟!

ـ ولنفرض أننى هناء ؟! فماذا تريد ؟!

ـ أريد توصيل الأمانة التى جئت بها مع ابنى !!

ـ امانة ؟! لا أعرف عما تتكلم !! عن اذنك !!

ثم دخلت فى محاولة لغلق الباب لكنه رفع صوته فى حسم :

ـ لن اغادر هذا المكان حتى اقابل الآنسة هناء وابلغها الأمانة التى أحملها لها !!

لم تعبأ أو تظاهرت بذلك ثم أغلقت الباب ! لكنها لم تطفىء المصباح ! ظل واقفا فى مواجهة العين السحرية لعلها تكون حريصة على مراقبته من طرف خفى ! ما هذه الأجيال الشيطانية ؟! عندما كان فى عمرها كان يصدق كل ما يسمعه حتى لو كان كذبا فاضحا!! اما هذه الشيطانة الساحرة فتتحداه بذكاء غريب !! فهل كان لوائل

ان يصمد فى مواجهتها وهو الذى نشأ على البـراءة والبسـاطة والصدق والتدليل ؟! لكن هل يعقـل ان ينهزم أمامهـا وهو رجـل الأعمال الكبير القدير الذى نجح فى اقناع حيتان السوق بالتعامل معه ! بل ونجح فى احتوائهم من خلال ادائه الرائع الـذى يتحـدى به اداء يوسف وهبى على المسرح ! يجب الا يستهين بها بل عليه أن يشحذ كل أسلحته ، فهذه صفقة لا تقدر بالألوف أو بالملايين ، ذلك أن فشله فى كفة وابنه فى الكفة الأخرى ! ولن يعود بخفى حنين !

جحظت عيناه أمام عين الباب السحرية ثم شهق شهقة دوت بين أرجاء الجدران ، بعدها سقط على الباب محـدثا ارتطاما له دوى ، فتح الباب على أثره فاذا بهناء ترى نصفه الأعلى ممـددا داخل شقتهـا بحدقتين متسعتين ! انحنت على وجهـه تربت على وجنتيه لكن جحوظ عينيه زاد مع رمش سريع أعاد الطمأنينة الى قلبها الذى كان قد أوحى اليها بأنه فارق الحياة !

ـ أرجوك ! أنا هناء اذا كان هذا يرضيك ! أرجوك ‥ انهض ‥ لست فى حاجة الى المزيد من المصائب ‥ فحياتى نفسها مصيبة متجددة !

بدت عليه بوادر العودة الى الوعى فأرخى جفنيه ، وهو يضع يمناه على مكمن القلب فى صدره فى ألم مكبوت :

ـ لم يعد قلبى يحتمل ما يجرى لابنى وائل !! على استعداد أن أدفع عمرى ‥ لا مجرد ثروتى من أجله !

أمسكت بكتفيه فى محاولة لاجلاسه فتحامل على نفسه وقد اتكأ على الأرض بذراعيه ، فى حين بدا باب الشقة المقابلة وكأنه فتح فتحة تسمح بالتجسس :

ـ هل من شىء أستطيع أن أقـدمه لك ؟! أخاف أن يراك أحـد الجيران على هذا الوضع فتذهب به ظنونه الى حيث تشاء !!

خرج صوته خفيضا لاهثا متقطعا وقد ترك قياده لهـا حتى أوقفته على قدمين مهتزتين وقد شعر بالعين الخفيـة خلف البـاب المقابل :

– وأنا لا أرضى لك الاحراج أكثر من هذا !! لكن هناك شيئا بالفعل تستطيعين تقديمه لى !!

– تفضل ٠٠ استرح أولا ! ثم نتكلم فيما تريد !!

ارتسمت على وجهه ابتسامة عابرة سرعان ما طردها وهى تقوده الى داخل الشقة التى أغلقت بابها فى رفق ٠ أجلسـته على حشـية خضراء فوق البسـاط الأحمر المشـبع بالتـراب والمشع بالرطوبة ! جلست على حشية مجـاورة وهى تتساءل فى ضراعة كأنها تريد التخلص منه بأسرع ما يمكن :

– هل تشعر بتحسن ؟!

– أرجو أن تمر الأزمة بسلام ! لم أمر بمثلها منذ سنوات !!

– أليس هناك دواء للاسعاف السريع ؟!

– تكاسلت عن حمله معى بعد أن ظننت أننى أصبحت سليما معافى !

– وما الذى أستطيع أن أقدمه لك بالفعل ؟!

أراد أن يرتب أفكاره وينمق كلمـاته فتشاغل بتأمل القـاعة التى لم تمسها يد النظـافة منذ زمن بعيـد ، والورق الملصق على الجدران ، المنبعج فى بعض المواضع والممزق فى البعض الآخر ، وبصمات الأصابع والخطوط المتعرجة خلف بعض الحشايا الملتفة حول مائدة مستديرة منخفضة فقـد زجاجها شـفافيته ، والولاعة الرخامية وعلبة السجائر وزجاجات الأقراص ، والمصباح الوردى الذى تدلى من السقف ليصبغ القاعة بلونه الخافت الحانى ٠ جذب نفسا عميقا ومعه مزيج الرطوبة والتراب المشبع بالعطر والدخان :

– اذا كنت تحبين ابنى فعلا ·· فأرجوك صده كلما حاول الاقتراب منك ·· لصالحه ولصالحك فى الوقت نفسه ·· فهو لم يذاكر كلمة واحدة هذا العام على الرغم من الامتحان الذى أصبح على الأبواب !! وأنا أعدك بعودته اليك بمجرد الانتهاء من امتحانه بنجاح ! فاذا كان هناك حب حقيقى بينكما فيجب أن يصبح حافزا للبناء والنجاح ·· وليس أداة للتدمير أو الفشل !

نظرت الى صدره فوجدت تنفسه وقد انتظم :

– وهل تمر مثل هذه الأزمات بهذه البساطة والسرعة ؟!

لم يحتمل وطأة دهائها الذى لا يتناسب مع سنها :

– وهل يضايقك أن تمر أزمتى بسلام ؟!

انتابها بعض الحرج العابر الذى ومض فى عينيها الرماديتين، وهز ساقيها برعشة مفاجئة تحت ثوبها الصوفى الأبيض الطويل :

– أبدا ·· أبدا ! لم أقصد هذا !! فعندما يضعنى أحد فى موقف حرج لا أستطيع التحكم فى كلامى أو سلوكى !

سعد باعترافها بالحرج فقرر أن يقتحم القلعة حتى عقرها :

– لم أقصد احراجك أبدا !! لكن هل تساعديننى فى انقاذ وائل !! انه وحيدى ·· وعندما تتزوجين وتنجبين باذن الله ستدركين معنى لهفة الآباء على أبنائهم !

لم تعد المناورة مجدية ! وها هو أبو وائل بشحمه ولحمه يجلس الى جوارها يتوسل اليها أن تفك أسره ! فى حين لم يعد وائل قادرا على الوفاء بالمبالغ التافهة التى تطلبها منه فى مقابل المتع والملذات التى ينهل منها ! فهل ترفض البنك الذى يمده بالمال والذى جاء اليها متضرعا متوسلا ؟! كم سمعت منه عن أبيه رجل الأعمال الذى يعقد الصفقات بالآلاف المؤلفة فى لحظة عابرة ؟! انه

الآن يضرب على أوتار الحب والأبوة والاخلاص والتفانى والتضحية فى حين أنه جاء لعقد صفقة جديدة ، فهل تترك له وائلا وتعود هى بخفى حنين ؟! لو كانت تعرف أن أباه قادم اليها بمثل هذه الصفقة لما صدته فى الأيام الأخيرة ؟! ومع ذلك واصل وائل توسلاته لدرجة الذل والاهانة !! فلتستثمر ما تبقى منه قبل فوات الفرصة وخاصة بعد الارتفاع البشع فى أسعار الأقراص والحقن والتذاكر !! وعليها أن تنتهز فرصة وعيها الحاد فى هذه اللحظة النادرة ، والذى أوشكت التذكرة على القضاء عليه ، وخاصة أنه صارحها بأنه على استعداد ليدفع عمره وليس ثروته فقط من أجل ولده • سألته فى هدوء امتزج بخبث لم يخف عليه :

ـ وكيف يمكننى مساعدتك فى انقاذ وائل الذى لم أتسبب أبدا فى ضياعه اذا كان قد ضاع فعلا كما تقول !

ـ كما قلت لك ! بصده كلما حاول الاقتراب منك !

ـ لا أخفى عليك ! فقد حاولت فى الأيام الأخيرة •• لكن بدون جدوى ! فالدافع منه وليس منى ! فالأمر ليس بالبساطة التى قد تتصورها !

تأكد أن الصفقة لن تكون رحلة مثيرة يستمتع فيها بممارسة ذكائه ودهائه • قرر كشف أوراقه لكن ورقة ورقة :

ـ كل الأمور يمكن أن تكون بسيطة لو خلصت النيات !! أى لو تعاونا معا لتحقيق نفس الهدف !! وأنا تحت أمرك فى كل ما تطلبين !!

ومضت نظراتها ببريق فضى رمادى أكد له ادراكها السريع لما يعنيه ! قرر أن يباغتها حتى لا يمنحها فرصة كبيرة للتخطيط والتدبير • أضاف :

ـ اعرف قيمة وائل لديك !! فك الارتباط العاطفى ليس بالأمر الهين !! ومع ذلك فقد علمتنى الحياة أن لكل شىء ثمنا ! مهما كـان غاليا !!

شعرت باقترابه الحذر من المنطقة الوعرة فتمسكت بالحـذر هى أيضا :

ـ لا افهم شيئا بالمرة !

ـ عهدت فيك الذكاء منذ اللحظة الأولى التى رأيتك فيهـا ! وتمنيت أن تستخدمى هذا السلاح العظيم فى دروسك ومحاضراتك وبناء مستقبلك !

لم تسترح لنغمة الوعظ والارشاد الأبوى التى أدمنها آخرون قابلتهم من نفس الجيل وخافت أن تجرفها بعيدا عن هدفها :

ـ سألتنى عما يمكن أن أطلبه !! أنا لا أطلب شيئا بل أنت الذى تطلب ابتعادى عن وائل أو ابتعاد وائل عنى .. لكننى لا أعرف كيف ؟! الصد لا يكفى بل يجب أن يكون هناك حافز أقوى يمكن أن يضع نهاية لكل شىء !!

ـ ومهما كان ثمن هـذا الحافز غاليـا فاننى على استعداد للتكفل به !!

تحسست طريقهـا فى غابة مظلمة من الظنون والاحتمـالات وهى تستدير لتواجهه فى جرأة أعجبته :

ـ وهل يمكن لكنوز الأرض كلها أن تتعادل مع كفة وائل ؟!

كيف تعامل ابنه البرىء الساذج مع هذه العقرب النـاعمة اللامعة ؟! تسلل بنظراته داخل عينيها وقال :

ـ كل شيء فى هذه الحياة نسبى ! فألف جنيه يمكن أن تعنى كنوز الأرض كلها لانسان فى حين يعنى مليون جنيه نفس القيمة لانسان آخر !!

أطرقت برأسها وتساءلت هامسة :

ـ قد تسيء الظن بشعورى تجاه وائل ؟! لكن صداقتنا كانت فى منتهى النقاء والبراءة !! بل بلغ ارتبـاطه بى أن عرض على الزواج أكثر من مرة !! لكننى أجلت مجـــرد الحديث فى هـــذا الموضوع خوفا على مستقبله ! لا أعتقد أن فك الارتباط العــاطفى سيكون سهلا على أى منا !!

الملعونة تساوم مثل أعتى رجال الأعمال ! قرر أن يطـرح الورقة الأخيرة أمامها على المـائدة بعـد أن أوحى اليه حسه بأن المبلغ سيكون ضخما :

ـ كفـانا دبلوماسية لا طائل من ورائهـا ! حددى مطـالبك بصراحة وبلا خجل ‥ فأنا فى منزلة والدك ولن أبخل عليك بشيء !

ـ لا تجرح شعورى بهذا الشكل ! فان قيمة وائل عندى لا تقل عن قيمته عندك !!

تريد بيعه بأعلى سعر ، لكن بكم ؟! سألها بصوت عال :
ـ وكم يساوى وائل عندك ؟!
ـ مثلما يساوى عندك !!
ـ ما رأيك فى خمسة آلاف جنيه ؟!
تظاهرت بدهشة خرجت من صدرها على شكل شهقة قصيرة :
ـ لم أتصور أن تفكيرك قد شطح بعيدا هكذا ؟!
ـ اذن ‥ صارحينى بما تطلبين !
ـ لم أتصور أن يكون وائل محلا للمساومة !!
ـ ستة آلاف ؟!

ـ افهمنى أرجوك !!

ـ سبعة آلاف ؟!

ـ لا أعرف ماذا يمكن أن أقول لك ؟!

ـ عشرة آلاف !! ما رأيك ؟! لن أستطيع دفع مليم أكثـر من هذا !

ـ أرجوك !! لا تظن أننى بهذه الصورة الشرهة البشعة !!

ـ اذا لم يكن تفكيرك على هذا المستوى المادى ٠٠ فلا أعتقد أن هنـــاك مشكلة !! فمـــا عليك ســوى أن تلقنى ابنى درســا فى كيفية الابتعاد عنك والانتبــاه لمستقبله !! فمن حقه أن يحبك وأن يتزوجك عندما يصبح قادرا على الصرف عليك من جيبه الخاص !!

ادعت الغضب لكرامتها حتى تخفى خوفها من ضياع الصيد الثمين :

ـ طالما أنك تزن ابنك بالمـــال وتجرح شعورى بهـذا الشكل الصريح ٠٠ فأنا لن أرضى الا بما يعادل خسارتى فيه !

ـ لن تزيد خســارتك فيه عن المبــالغ الصــغيرة التى كنت تطلبينها منه بين الحين والآخر والتى عجز عن دفعها أخيرا ؟!

صمت خوفا من أن يكون تخمينه قد خانه التوفيق لكن سرعان ما تلاشى خوفه وانقشع أمام اعترافها المتسائل :

ـ وهل كان يخبرك بكل شىء ؟!

ـ لم يخف وائل عنى شيئا ! فهو يطلب نصيحتى دائما فى كل كبيرة وصغيرة !!

ـ ولماذا لم تنصحه بالابتعاد عنى ؟!

– هذا هو الموضوع الوحيد الذى لم تجد فيه نصيحتى !

– وهل طلب نصيحتك بخصوص المبلغ الأخير ؟!

تحسس ابراهيم طريقه الوعر حتى لا يتعثر :

– عندما ضغطت عليه صارحنى !! وكانت ظنونى فى محلها!! فالطريق الذى سار فيه لابد أن يورطه فى مشاكل من هذا النوع !!

امتقع وجهها وأطرقت برأسها فتقدم خطوات أخرى :

– أرجو أن تكون المشكلة قد انتهت بلا تعقيدات ! لكن أعتقد أن المبلغ الذى عرضته كفيل بحل عشر مشاكل من هـذا النوع ! لا مجرد مشكلة واحدة !

لم تحتمل فكرة الخروج من المولد بلا حمص بعد أن بلغت الأمور هذا الحد ! لم يتبق لديها ما تقوله سوى :

– أعتقد أنه أغلى من ذلك بكثير !!

– ألم اقل لك ان الصراحة افضل وأسرع السبل الى التفاهم ؟! كم تريدين ؟!

– ضعف ما عرضته !!

– الطمع يقل ما جمع !

– لم اجمع اية مكاسب ! فرض وائل نفسه على وكانت غلطتى أننى رضخت له وتحملت كل الخسائر التى تسبب فيها بلا مبرر !!

نهض ابراهيم واقفا فلم ترفع رأسها للنظر اليه وهو يقول :

– ومن سيضمن لى انك ستلتزمين بالاتفاق اذا دفعت لك ما تطلبين ؟

نظرت اليه وقد تضاعفت حمرة عينيها فرثى لها ، فقد كان من الممكن أن تكون له ابنة مثلها ! لن يبخل عليها بالمبلغ لـكن لابد من ضمان ! مرت لحظات صمت تكلم فيها السكون ٠ أرخت رموشها لتهمس :

– انك يا عمى رجل أعمـال وتعرف جيـدا كيف تضـمن اتفاقاتك !

سعد للتقارب النامى بينهما فعاد الى الجلوس الى جوارها :

– يشرفنى أن أكون عمك يا هناء ٠٠ وأن لا تخجلى من طلب مساعدتى فى أى وقت ٠٠ لكن أريد أن تعدينى بالا يعلم وائل شيئا عن هذا اللقاء !!

ابتسمت هناء لأول مرة :

– رأيت هذا الموقف من قبل فى أحد الأفلام !

أعقب ابتسامتها بضحكة ذات مغزى :

– لكن بطلة الفيلم لم تطلب مقابلا لتضحيتها !

– كانت فى عصر اعتبر التضحية قيمة فى حد ذاتها !!

أكمل كلماتها بنفس الايقاع :

– ونحن الآن نعيش فى عصر لا قيمة فيه لغير المادة !

– يبدو أننا متفقان فى أشياء كثيرة ! ولذلك أعدك بأن يظل اللقاء بيننا سرا مغلقا !

– سأحرر لك شيكا لكن بشرط أن تكتبى لى ايصال ضمان حتى أتأكـد من أنك سوف تصدين وائـلا عنـك ولن تفشى له سر لقائنا !!

– لماذا تفترض مقدما أن أثق بك فى حين أنك فاقد الثقة تماما بى ؟!

لم يستطع أن يكتم ضحكة افلتت منه وهو ينهض مرة أخرى :

– خسارتك فى الادمان !! لولاه لكنت قد استعنت بك فى اعمالى !! كان يمكن أن تكونى سيدة أعمال من الطراز الأول !

تركت الابتسامة الباهتة تجسد شيئا غامضا داخلها لم ترد أن تفصح عنه فواصل حديثه الذى أوشك ان يصبح ابويا :

– لو نجحت فى الاقلاع عن الكيف والانتهاء من دراستك الجامعية فسوف افكر فى تعيينك فى أحد مشروعاتى !!

– لم أعد أهتم بأى شىء فى هذه الحياة !!

– كنت فى سنك شعلة من الحيوية والتدفق والانطلاق والبشر والتفاؤل !

– لم يحكم عليك الزمان بمثل ما حكم علينا !

– حكم الزمان نتيجة طبيعية للأسلوب الذى نفكر ونسلك به !

– ما أسهل أن يلقى الواقف على بر الأمان الحكم والأمثال والنصائح الى الغريق الذى جرفته الأمواج بعيدا ولم يعد يسمع سوى هديرها !

لاحظ رعشة انتابت ذراعيها وساقيها ، وتدفقت من حمرة عينيها دموع سارعت بمسحها بأناملها الرقيقة فتساءل فى حرج !

– هل يرضيك أن تدمرى صحتك بهذه البساطة ؟!

– وما قيمة الصحة اذا كانت الحياة نفسها مرفوضة ؟!

خاف ابراهيم من أن يتوه معها فى أزقة الحوار العقيم بعيدا عن هدفه الذى جاء لأجله ! أخرج من جيبه دفتر الشيكات مسندا اياه الى ركبته بعد أن جلس على الحشية ، فتحه وهو يقول :

ـ برغم كل شىء فان شيئا داخلى يوحى الى بالثقة بك !

ـ لولا الزمن الأغبر لما وقفت هذا الموقف ! فأنا لست بهـذه النذالة التى يمكن أن تتصورها عنى ! المال عندى مثل الماء والهواء! كتب على أن أحصل عليه بأية وسيلة ! على الأقل فقد حصلت عليه هذه المرة برضاك !! ومن يعلم !! ربما اضطرتنى الظروف الى بيع كل ما أملك أو مد يدى للغير سواء بعلمهم أو بدون علمهم !

أجهشت بالبكاء وأسرعت بالنهوض بعد أن أوشك على أن يربت على كتفها تأثرا · تناثرت كلماتها بين دموعها وتنهداتها :

ـ سأكتب لك الايصال الذى تريده !

كاد لسانه أن يفلت بعدم رغبته فى الحصول على الايصال ، لكن سرعان ما ألجمه ! فربما كانت صادقة ونقية فعلا ، لكن ماذا يمكن أن تفعل لو تلاشت ارادتها تماما أمام جحافل الكيف ! يجب أن يترك الأب مكانه لرجل الأعمال ، فهـذا ليس وقتـــا للجيشـــان العاطفى ، وهو لم يذهب اليها لاصلاح الكون !

عادت اليه وفى يدها كراسة صغيرة وقلم · سألته عن صيغة الايصال فأملاها اياها ووقعت فى نهايتها لتقدمها اليه قبل أن يحرر الشيك ، فتأكد من براءتها ونقائها ! وضع الايصال فى جيبه وانكب على الشيك يحرره باسمها الثلاثى الذى كتبته فى الايصال وبالمبلغ الذى طلبته ! قدمه اليها لتتسلمه فى خجـل دون أن ترفع عينيهـا اللتين فاضتا بالدموع مرة أخرى ! نهض واقفا وهو يقول فى بعض الحرج :

– أرجو أن أرى نتيجة اتفاقنا واضحة وملموسة بأسرع مايمكن!

– سأكون عند حسن ظنك !

اقترب من باب الشقة واستدار ليهمس شاكرا :

– الحمد لله ٠٠ لا أعرف ماذا كان يمكن أن أفعل لو أنك أصررت على انكار نفسك منى !

برغم الدموع لاحت على وجهها ابتسامة مثل شمس خلف سحب الشتاء الرمادية المشحونة بوابل من الأمطار :

– وأنا أحمد الله أيضا ٠٠ فلا أعرف ماذا كان يمكن أن أفعل لو أنك أصررت على أزمتك القلبية !

غمرت وجهه ابتسامة انتهت بضحكة عابرة :

– أتمنى لك السعادة والاستقرار والأمومة الصالحة فى المستقبل ! عندئذ ستجدين نفسك على استعداد للتضحية بحياتك نفسها من أجل أبنائك !!

سارت نحوه بخطوات وئيدة مهتزة حتى واجهته وهى تمد يدها :

– مع السلامة !

شد على يدها بحرارة تصاعدت حتى قبل وجنتيها فى جيشان أبوى ! همست مع وابل الدموع :

– يكفينى هذا ! لولا الحاجة لمزقت الشيك !

ربت على وجنتيها ماسحا دموعها بأطراف أصابعه :

– أرجوك ! لا تفرطى فى صحتك ومستقبلك أكثر من هذا !

– سأحاول ٠٠ لكن لا أستطيع أن أعدك !

– مع السلامة !

فتح الباب مسرعا صوب المصعد الذى برز ليهبط به ، وهى تلوح له بذراعها الرقيقة النحيفة خلف شبكته الحديدية !!

- ١١ -

تحسس وائل المفتاح فى جيبه وهو ينطلق بسيارته سعيدا بخطته التى دبرها بنفسه لانقاذ ماء وجهه الذى يريد الجميع اراقته ، حتى أقرب الناس الى قلبه ! كانت الساعة تقترب من الرابعة مساء حين بلغ الفيلا التى نعست فى دفء شمس الربيع وحرارة أنفاسه ! ما سوف يفعله اليوم لن يتكرر مرة أخرى ! انه عهد بينه وبين الله ! فتح الباب ودلف الى غرفته وهو يمسح أركان المدخل بعينيه مقاوما الزغللة قدر امكانه فوجده كعادة أبيه وأمه التى حيرته فى الأيام الأخيرة ! لم يعد أحد منهما ينهال عليه بالنصائح التى تتراوح بين الترغيب والتخويف ، بل ان حديثا واحدا لم يدر بينه وبينهما ! عاد الأب الى الانهماك فى دوامة أعماله ومشروعاته وان لم يسافر هذه المرة الى الخارج ، فى حين شرعت الأم فى اعداد مدرستها للامتحان الذى يبدأ بعد حوالى شهر ! أما خالته عفاف فلم تعد تكثر من زياراتها ، فى حين لم يعد يوسف يكلف نفسه مشقة مجرد السؤال عنهم تليفونيا ! أما معالى فقد دخلت كعادتها دوامة الامتحان ، وتلاشى اهتمامها به نهائيا وخاصة أنه توقف عن التردد على الكلية تماما بعد أن سمع احدى زميلاته تخاطب زميلا لها خلسة عنه وتقول فى سخرية واضحة : انه شمام من الطراز الأول ! فرد زميلها متأثرا : لم أر مثل هذا الجنون

والغباء من قبل ٠٠ خسر معـالى ودراسته وصـحته ومستقبله ! ختمت الزميلة تعليقها وهى تهبط معه على درجات سلم الكلية : ومع ذلك رفضت معالى محاولات كل الذين حاولوا خطب ودها ٠٠ يبدو أنها لم تفقد الأمل فيه بعد ! على كل حال فهو ليس أول المدمنين ولا آخرهم ! كان فى أعقابهما دون أن يشعرا بوجوده ، لكنه توقف فجأة عندما تلاشت رغبته فى المزيد من التصنت واستقل سيارته لينطلق بها بلا عودة الى الجامعة !

جلس فى غرفتـه لكن جدرانهـا أطبقت على أنفـاسه حتى أوشكت على ملامسة بؤرة القلق داخله ! نهض ليتأمل وجهه فى المرآة ! كم هزل فى الشهور الأخيرة ! وذبلت بشرته ، وفقد شهيته ليس للطعام فحسب بل للحياة نفسها ! لا شك أن الآخرين لاحظوا كلماته المطوطة الثقيلة البطيئـــة ، وحروفه المتآكلة ، وأفكـــاره المتناثرة ، ونظراته الشـــاردة فى عينين حمراوين ، وخطـواته المترنحة ، وعصبيته المتصاعدة ، وألفـاظه الجارحة التى وجههـا أول ما وجهها الى أحب الناس اليه : أمه ، وفمه الذى تحول الى مدخنة متفحمة كئيبة ، ولجوئه الى أكواب الشاى وفناجين القهوة طوال النهار حتى يظل متنبها قدر امكانه !

اشعل سيجارة جديدة ، وشرع فى قرض أظافره وهو يخاطب وجدانه فى المرآة ! لكن ما لم يلحظه الآخرون وحاول كتمانه بعيدا عن عيونهم : التشنج والرعشة والخوف والقلق والهياج الشديد والاحساس الدفين بالذنب والانعدام الكـامل للتوازن ! ذات مرة عجزت يده المرتعشة عن الامساك بكوب شاى قدمتها اليه هناء ، وحمد الله على أنه لم يعد يحتك بأمه فى البيت حتى لا يفتضح أمره أكثر من هذا ٠ وفى الأيام الأخيرة اكتشف أنه اعتاد التسكع فى الطرقات والشوارع بلا هدف برغم نظرات السخرية أو الرثاء التى

يلمحها فى كل من تقع عيناه عليه ! كذلك لم يعد يحتمل تلك الأشياء الغريبة الغامضة التى تسرى تحت جلده ! ولو عجز هذه المرة عن الحصول على ما يمكنه من الحفاظ على هناء والمخدر فلن يتبقى أمامه سوى وضع حـد حاسم لوجوده الـذى أصبح كابوسا حيـا متجددا ليل نهار ! ٠

أين ذهب ذلك الشاب الجذاب بشعره الأسود الفاحم اللامع الناعم ، والعينين السوداوين بوميضهما النفاذ ، والبشرة البيضاء المشربة بما يشبه الحمرة ، والأنف المشرئب الى أعلى ، والشفتين الورديتين المائلتين الى الغلظة ، والخضرة الباهتة الناعمة مكـان حلاقة الذقن والشارب ، والقوام السمهرى ، والحيوية المتدفقة فى نظراته وحركات يديه ؟! أين ذهب كل هذا السحر الذى خلب أفئدة الحسناوات الفاتنات ؟! أحدث كل هـذا بسبب هنـاء ؟! ومع ذلك لا يزال يحبها بل يعشقها لدرجة الادمان ؟!

تنبه وائل على صوت أمه تخاطب أحدا ففتح باب غرفته ليلمحها تتحدث فى التليفون فى غرفة المكتب ! أدرك أن يوسف على الطرف الآخر من الخط ٠ التقط ألفاظا متناثرة تدور حول : أبيه الـذى لا يعود الى بيته قبل الثامنة أو التاسعة مسـاء كل يوم ، ومعالى التى تتمنى النجاح والتوفيق لوائل برغم جفائه الذى باعد بينهما تماما ، والعمل المتزايد بضـغوطه على المستشفى بعـد أن تحول الادمان الى وباء ، ورغبة يوسف فى زيارتهم فى المساء برغم ضغط العمل فهو لا يحتمل البعد عن خالته فترة طويلة ، وتمنيـات الأم وصلواتها لعودة أمور وائل الى مجاريها !!

تنبه وائل لمهمته الشائكة فشرع فى الزحف وهو نهب لنوبات من المد والجزر بين اليأس المرير والأمل الأكثر مرارة ٠ ذهب الى غرفة المكتب وحيا أمه بايماءة من رأسه الذى أوشك على الانفجار

بعد أن فات ميعاد الجرعة التالية معللا النفس بقرب وصال هناء !
ابتسمت الأم ابتسامة لم تخف بها خوفها وحزنها ورثاءها للحال التى بلغها وهو يلقى بجسده الهزيل على المقعد الوثير ٠ همست وهى تحاول اصطناع الدعابة :

– يوسف يهديك السلام ٠٠ وسيتناول العشاء معنا الليلة ٠٠ هو ومعالى !

أجابها فى اقتضاب اعتادته فى الفترة الأخيرة :

– أبلغيه سلامى !!

صاحت فى السماعة وكأنها تدعى التهلل :

– وائل يهديك السلام ٠٠ وهو جالس الى جوارى !

كانت على وشك مواصلة حديثها التليفونى لولا مقاومة وائل الذى لم يخش وصول صوته الى اسماع يوسف :

– أريد التليفون لأتصل بزميلى الذى أذاكر معه ! فقد قررت أن أنهى معه الليلة مادة التكاليف كلها !!

كانت حكمت تدرك حقيقة كذبه لكنها آثرت الانسحاب منعا لأى انفجار محتمل ٠٠ هزت رأسها فى استسلام وقالت فى السماعة :

– لن أضيع وقتك فى ثرثرة على البعد ٠٠ فى انتظارك أنت ومعالى ٠٠ وسلامى لماما وقل لها الا تجهد نفسها مرة أخرى ٠٠ فالانفلونزا مرض تغيير الفصول وأنت سيد العارفين ٠٠ سأمر عليها غدا باذن الله ٠٠ مع السلامة يا يوسف !!

وضعت السماعة ونهضت قائلة فى تحفظ :

– تفضل !

غادرت الغرفة فنهض ليجلس مكانهـا خلف المكتب وهـو يتحسس المفتاح فى جيبه · أدار القرص ودق قلبه خفقات غيـــر منتظمة عندما جاء صوت هناء على الطرف الآخر ! نظر حـوله فى توجس ثم شرع فى استخدام الشفرة التى اتفقا عليها منذ أول لقاء والتى تبدأ بألفاظ المذكر :

ــ هاى !! كيف حالك ؟! يبدو انك اجهدت نفسك فى الدراسة فى الأيام الأخيرة !! ··· ··· ··· ··· ··· ··· ··· طبيعى أن تفلت أعصابك نتيجة الاجهـاد !! على كـل حال سنذاكر الليـلة مادة التكاليف كلها !! ··· ··· ··· ··· ··· ··· سأحضر لك كل المراجع كما وعدتك من قبل !! ساكون عند حسن ظنك كما عودتك دائما ! ··· ··· ··· ··· ··· ولو !! ولو !!

بلا وعى أصغى وائل السمع وهو ينظـر حوله ثم أخـرج المفتاح من جيبه وأداره فى ثقب الدرج ! تهلل وجهه عندما أطاعه ! جذب الدرج فخرج مع يده المرتعشة ونظراته الشاردة تتسع لتحتوى ما بداخله ! كانت هناك رزمتان أسرع بدسهما فى جيبه ثم مد ذراعه حتى أعماق الدرج المظلم لتصل الى ما خفى لكنه لم يجد سوى قلمين وكشكول وساعة يد ذهبية ومذكرة صـغيرة للجيب ! أعـاد التفتيش الأهوج فلم يجد سوى ما دسه فى جيبه ! أعاد اغلاق الدرج وهو يقول فى السماعة متهللا :

ــ ولو ! ساكون عندك بعد نصف ساعة !! وحاول التخلص من أى صديق يحاول أن يفرض نفسه عليك بزيارة لا لزوم لها !! مع السلامة !!

ضم شفتيه ليحدث صوتا اشبه بالقبلة ثم وضع السـماعة لينطلق فى خفة الغزال الى غرفته التى اوصـدها خلفـه بحرص شديد ، وأسرع بأصابع مرتعشة الى عـد الأوراق التى تضمهـا

الرزمتان ، فوجد الأولى تحتوى على ثلاثمائة جنيه والثانية على مائتين فقط ! انطفأت جذوته وأعاد العد لعل الحمى التى تسرى فى عروقه طالبة الجرعة تكون قد اوقعته فى الخطأ ، لكنـــه كرر المحاولة ثلاث مرات فلم يزد المبلغ جنيها واحدا ! ارتمى على المقعد وفكر فى مصروفه الشهرى الذى تسلمه من أبيه بالأمس فقط ! لو ضمه الى المبلغ لأصبح لديه ثمانمائة بحيث يقترب بقدر الامكان من الألف جنيه المشئومة !! لكن كيف يقضى الشهر كله بلا مال ؟! ومصروفه يكفى بالكاد تكاليف الكيف ؟! قرر الا يضيع وقتــه فى التفكير والتحسر والشرود !! سيمنحها ما وجده فى الدرج مع وعد اكيد باكمال المبلغ كله واكثر فى ايام معدودة !!

انطلق الى خارج الفيللا وهو يقرض اظافره ! كان الكون قد التحف بغلالة صفراء من رمال ناعمة شفافة علقت بالهواء الساكن! كانت معالى تداعبه دائما بأن الربيع فى مصر وهم كبير !! فالنسيم العليل ، والشمس الصافية ، والليالى المنعشة القمرية لا توجــد الا فى موضوعات الانشاء ، اما الربيع الحقيقى فــلا يعرف ســوى الأتربة والرمال التى تصيب العيون والحلوق والأنوف والآذان !! على كل حال حمرة العيون بالنسبة له لم تعد مشكلة ؟!

ادار عربته الصغيرة لينطلق بها عبر شارع الهرم ! تذكر الساعة الذهبية فى الدرج ولام نفسه على تركهــا ! كان يمكن ان يبيعها ويكمل المبلغ ! فكر فى العودة والتقاطها لكن شيئا قابعا فى أعمق أعماقه أنبه على هذا التفكير لأنه نسى التهم التى ستحوم بالفعل حول الطباخ والخادم والخادمة والبواب ! طرد الهواجس واخترق بالعربة الغلالة الصفراء الشاحبة التى امسكت فى سكون بخناق مصابيح الشـــارع التى اضيئت مع مهبط الغـــروب ! كـــان الدفء يسرى فى كل الأشياء لكن برودة مظلمة رطبة كانت تعشش داخله مثل بركة آسنة راكدة برغم أمواج القلق والاحباط والشبق المجنون لجرعة أو شمة !

القى بمفتاح الدرج وهو يخترق نفق الهرم ثم تحسس مفتاح شقة هناء ليطمئن الى وجوده فى الجيب الآخر ! برغم شروده ورعشته واحباطه ، تحول الى كتلة نابضة بالحرص على الوصول سالما الى هناء دون أى احتكاك بالسيارات المارقة يمنة ويسرة ! تذكر حادث التصادم الذى وقع له فى طريقه الى أول لقاء تاريخى فى بيت هناء ! أمسك بالمقود كأنه يدير دفة حياته فى محاولة للخروج من دوامة الضياع والشرود والأشياء الغامضة الغريبة التى تسرى تحت جلده !

أخيرا وجد عربته امام مدخل عمارة هناء ! دق قلبه بخفقات غير منتظمة فقرض أظافره ! وجد نفسه داخل المصعد الذى تصاعد معه أمله فى لقاء حميم يمزج اللذة بالكيف والمتعة بالمزاج ، وصورة هناء الفضية الرمادية تضىء كيانه الذى أظلم داخله فى الأيام الأخيرة الكئيبة ! لفظه المصعد الى الباب الذى أدار المفتاح فيه وهو يتحسس الرزمتين فى جيبه ! دفع الباب فى رفق فاذا به يرى مشهدا أذهله برغم أنه راود خياله من قبل أكثر من مرة !

كانت هناء ذاهلة فى أحضان الجلف الذى يدعى ميمى ترافولتا على حشيتين وقد انطبقت الشفتان على الشفتين فى حين تناثرت زجاجات الأقراص وحقنتان على المائدة الزجاجية الملطخة ببعض البصمات وبقايا سوائل : شاى أو قهوة ! لم يدر ماذا يفعل وقد غمرهما ذهول اكتسحت أمواجه ذهوله الذى أصبح حيرة مريرة قاتلة ؟! صرخ من أعماقه كأنه يرزح تحت وطأة كابوس لم يسمح لصرخته بالانطلاق ومع ذلك وجدهما ينفصلان لتنظر اليه هناء نظرة لم تخل من ابتسامة ساخرة ، وليخرج صوت الجلف الأجوف زاخرا بالاحتقار والتشفى :

ـ اهكذا يتسلل أولاد الناس الى بيوت الناس ؟!

لم يعره التفاتا بل خاطب هناء بصوت ذبيح :

– فعلت المستحيل كى أحصل لك على المال !! حتى أصبحت لصا !! وفى النهاية أراك فى هذا الوضع !!

خرج صوتها هامسا بلا مبالاة ، وكلماتها ممطوطة ، وحروفها متناثرة ، فى حين امتزجت حمرة عينيها بذبول وجهها الناطق بسعادة بلهاء :

– وكم أحضرت معك سيدى اللص ؟! ملاليم طبعا كالعادة ؟!

– كنت أشك فى شىء ما بينك وبين هذا الجلف !! لكننى لم أكن أعرف أنك رخيصة الى هذا الحد ؟!

شمر الجلف عن ساعديه بعد أن ألقى سترته الجلدية جانبا :

– لابد أن نعلم الأدب لهذا الولد !!

تشبثت هناء بذراعه الضخمة الصلبة التى ارتسم عليها وشم فتاة تلعب الحبل فى حين بدت أظافره الطويلة السوداء :

– لا داعى لوجع الدماغ !! سيغادر المكان من تلقاء نفسه !!

استيقظت داخل وائل كرامته القديمة النائمة بعد أن بلغت مهانته حدا لم يراوده ولا حتى فى الكوابيس :

– اننى لا أتسول يا هانم ! بل أنت التى تستجدين ولكن بحيل لم تكن لتخطر ببالى أنا الغبى الساذج !! وكانت العملية اياها آخر حيلك ! فأنا لم أر شيئا !!

صرخت فى وجهه وقد أمسك التشنج الذاهل الذابل بتلابيبها :

– اخرس ! لم أعرف الكذب مثلك !!

ـ وحتى اذا كانت العملية حقيقية ؟! فلماذا أكون أنا السبب وهذا الجلف برىء منها ؟!

ألقى الجلف بقبضة هناء الواهنة جانبـا ، ونهض عمـلاقا امسك بخناقه وقد انهال على وجهه باللكمات المتلاحقة التى حاول وائل أن يتجنبها بذراعين مرتعشتين حتى سقط على الأرض فاقـدا الوعى وسط صرخات هناء ونشيجها . لم يعبأ الجلف بها ! حمله على كتفه وألقى به أمام باب المصعد ثم عاد الى هناء وهو ينفض يديه بابتسامة بلهاء . عاجلته هناء بكلمات واهنة مرتعشة :

ـ انك بهذا تجلب المصائب علينا ! ربما عاد هو وأهله للانتقام والفضيحة ! لا يمكن أن نلقى النـاس بالأحجـار ونحن نعيش فى بيت من زجاج !!

جلس الى جوارها وشرع فى اشـعال سـيجارة ! ارتعشت نبراتها :

ـ أرجوك يا ميمى ! لا داعى لوجودك هنا الليلة ! حاول أن تبعده بأية طريقة !!

ـ وهو كذلك يا جميل ! خدام طلباتك وأوامرك !

غمر وجهها بالقبلات السوقية الثقيلة ثم غادر الشقة موصدا الباب خلفه بعد أن طلب منها اخفاء النارجيلة والزجاجات والحقن تحسبا لأى احتمال لكنها فى ذهولها لم تحرك ساكنا !

نظر حوله فى ترجس لكن الظلام كان قد أطبق على السلم لولا بصيص صادر من بعض المصابيح الخافتة فوق أبواب الطوابق السفلى . حمل وائلا على كتفه وهبط به على الدرجات طابقين حيث ألقاه فى ركن معتم . نفض يديه مستقلا المصعد الذى هبط به ليلفظه الى خارج العمارة !

بدأ وائل يفيق على صوت كركرة قطة صغيرة تمسحت به فى حنان دافق . تحسس ما حوله متصورا جسده فى فراشه ! أعادته برودة البلاط وعتمة السلم الى وعيه المحترق بنار الشبق للجرعة التالية ، فأزاح القطة حتى ارتمت على الدرجات القريبة برغم حبه لمخلوقات الله الوديعة ! انحدرت دموع صامتة من عينين ملتهبتين ، وجرفته مرارة المهانة بحنين قاتل الى أحبائه القدامى : أمه وأبيه ومعالى التى جرحها مرارا ، ولم يدرك جوهرها الحقيقى الا فى تلك اللحظة !

تحامل على نفسه حتى نهض مستندا الى الجدار وهو لا يدرى ماذا يفعل ؟ وأين يذهب ؟! لكنه ترك قدميه تسيران مرتعشتين مهزوزتين الى المصعد الذى هبط به مع الدنيا التى دارت به وهو يدير سيارته ! تحولت الغلالة الرملية الشفافة المحيطة بالكون الى عاصفة داكنة اصطدمت بنوافذ البيت ، وطارت بأوراق الشجر ، وصفعت الوجوه ، وأخفت صفحة النيل الصامت ، وضيقت من الرؤية أمام السيارة !

تذكر آخر مكالمة تليفونية له معها قبل مجيئه ! كم خدعته بل كم خدع نفسه ؟! لكن هل يترك الأمر كله بلا انتقام لكرامته على الأقل ؟! فى المكالمة تناهى الى أسماعه صوت الجلف على البعد ومع ذلك كذب أذنيه ! تركته فترة صامتة انتهزها فى البحث عن المال فى درج أبيه ، وعندما عادت الى الكلام لم تكن مرحبة به ، ومع ذلك ضغط عليها حتى يثبت لها انه رجل عند كلمته ! من هى حتى يثبت لها أى شىء على الاطلاق ؟! كم هبطا معا الى الدرك الأسفل ومع ذلك ظل يوهم نفسه بأنها ينبوع السعادة والنشوة والحب والأمل ؟!

آه !! لولا ذلك المخدر اللعين لاستطاع أن يدوسها بنعله !! فقد فكر فى الادخار فى الأيام الأخيرة حتى يفى بما وعدها به غباء وجهلا ، ودار بل حام كالتائه الشريد حـول الصيدليات بحثـا عن الأقراص المسكنة والسوائل المهدئة ! وكم عانى من نظرات الاشفاق والرثاء تارة ، والاشمئزاز والاحتقـار تـارة أخرى فى عيـــون الصيادلة الذين ضنوا عليه بما طاب ؟! وبين كـل عشرة منهم أو اكثر كان أحدهم يتعامى ويتجاهل ثم يتفضل ويتنازل ليمنحه شرابا للسعال فيفرغ الزجاجة كلهـا فى جوفه بمجـــرد بلوغه غرفتـه الموصدة عليه دائما فى المنزل !

هل رضخت لزيارته لها خصيصا حتى ينفرد به هـذا الجلف وينهال عليه باللكمات والصفعات ، وهو الذى لم تنله اهانة واحدة على يدى أبيه وأمه منذ طفولته برغم صفاقته الأخيرة معهما بسبب هذه الرخيصة الحقيرة ؟! كم يحن الى أحضانهما الآن ؟! وجـد نفسه يشق طريق العودة الى البيت دون أن يدرى !! لكن شيئا غامضا داخله أحرقه بنار الانتقـام لكرامته وكبريائه ! ومعركتـه ليست مع هذا الجلف الذى لا يليق بمن على مستواه أن يتعامل بمن على شاكلته ! معركته معها هى التى خدعته منذ البداية بمعسول الكلام الذى لم يدرك مدى صدقه من كذبه أبدا ، وبمتعة الجنس ، الرخيص فى قيمته الغالى فى ثمنه ، الجنس الذى كان يمكن أن يمارسه مع أى بنت من بنات الليل اللاتى يمتزن عنها بالصـــدق والصراحة ! حتى المتعة معها كانت مرتبطة دائما بالعذاب ، واللذة ممزوجة بالألم ، ولولا سقوطه فى قاع بئر الادمان لكان له معها شأن آخر !

أوشكت سيارته الصـغيرة أن تحتك بأخـرى وسط صـفرة العاصفة الهوجاء لكنه تدارك الأمر فى اللحظة الأخيـــرة فسعد بارادته العائدة برغم لعنات سائق السيارة الأخرى ، وبرغم القبضة

الحديدية التى تكاد تسحق أعصابه المتقلصة وتحيلهـا الى أسلاك مهترئة متناثرة اذا لم تنل مهدئا أو مسكنا ! لكنه بحق كبريائه المهدرة ، وبحق معالى الشمعة المضيئة فى حياته برغم كل محاولاته لاخمادها ، سيعرف كيف ينتقم منها ! لن ينسحب من حياتها على يدى هذا الجلف ! سينسحب بطريقته هو وبارادته هو ! لكن كيف ؟!
هذا هو السؤال الذى تراقص على الزجـاج أمامه برغم لفحـات الرمال الناعمة عليه ! لابد أن يمنح نفسه فرصة للتفكير ! لكن كيف يفكر مع هذه النار السارية فى أعصابه وشرايينه ؟!

هل يستطيع أن يحيل جهنم المستعرة داخله الى نار تحرق تلك التى أذلته ؟! انه لا يعرف من أين يأتون بتلك التذاكر والحقن ! لم يسأل يوما عن مصدرها ! كانت هناء دائما رهن اشارته فى كل ما يطلبه طالما أنه قادر على دفع الثمن ! هل يبحث عن هذه المصادر بنفسه أم يقتصر على التردد على الصيدليات برغم أن الأقراص المسكنة والسوائل المهدئة لم تعد فعالة فى اخماد النار التى شدت عليها أعصابه وكاد أن يشم رائحة دخانهـــا ؟! هـل يعجـــز عن الصمود فى هذه المحنة وتجاوزها وهو الذى تحدى أحباءه كلهم من أجلها ؟! هل يترك مقود سيارته لتصطدم بهذه الشاحنة العملاقة ويريح ويستـــريح ؟! لكن من العـــار أن ينتحر ويترك تلك الحيـــة الرقطاء لتستـــمتع بالقضاء على الآخرين كمـــا سعت الى انهـــاء كل وجود حقيقى له ! اذا كان احساسه القاتل بالذنب يدفعـــه الى انهاء حياته التى أصبحت جمرة متقدة من الجحيم فليفعل ! ولكن ليس قبـــل أن يقضى عليهـــا أيضا ! لكن كيف ؟! عـــاد السؤال ليدق رأسه بمطارق من حديد ! هل يمكن أن تسامحه معالى وأمه وأبوه اذا أقدم على هذه الفعلة ؟! انهم لا يعلمون الجحيم الـــذى بلغ بؤرته اليوم ؟! لن يستطيع أحد أن يمد يده لينتشله من ألسنته !

بلغ البيت فترك سيارته الى جوار الطوار واخترق الحديقة دون أن يلتفت الى تحية البواب العجوز الطيب ! فتح الباب فوجد الأسرة قابعة فى قاعة المدخل تتجاذب أطراف الحديث : أمه وأبوه ومعالى ويوسف الذى كان يتكلم عن حديثه المفضل الذى التقط وائل منه كلمات مثل الصحة والعلاج والوباء الذى يسرى فى الشباب كالنار فى الهشيم !

رحبوا به جميعا فيما يشبه الصوت الواحد وان اختلفت الكلمات ، لكن الذهول ارتسم على وجوههم عند التدقيق فى وجهه ! القى بتحية المساء ثم لجأ الى غرفته ليلقى بنفسه داخلها ! أضاء المصباح الساطع فلمح وجهه وما فعله به الجلف فى المراة : كدمات زرقاء تحت العين اليسرى ، وما يشبه الورم فوق اليمنى ، وعلى يسار الشفة السفلى ، مع آثار دماء لم يسمح لها بالانطلاق أسفل الفك الأيمن !

شهق فى نفس اللحظة التى فتحت فيها أمه الباب وفى أعقابها أبوه ويوسف ومعالى ! أمسكت أمه بتلابيبه صارخة متشنجة :

ـ ماذا جـــرى لك يا حبيبى ؟! هـل تشاجرت ؟! لابـد أن تصارحنى فقلبى لم يعد يتحمل أكثر من هذا ؟!

نظر اليها بعينين حائرتين دامعتين وتاهت الكلمات والأفكار فظل مطبق الشفتين ! أمسكه أبوه وهزه فى عنف :

ـ لم يعد الصمت يجدى ! لابد أن تصارحنا ! مستحيل أن اتركك على هذه الحال !! أتسمعنى ؟!

لكن يوسف تدخل جاذبا الأب فى رفق الى الخلف وهو يكـاد يحتضن وائلا مربتا على كتفيه :

– أرجوك يا وائل !! ففى امكاننا مساعدتك مهما كان مبلغ تورطك !!

لمح وائل الدموع فى عينى معالى فاجتاحته رغبة جامحة فى تقبيل يديها والركوع عند قدميها ، لكن سرعان ما ضغطت صورة هناء على أنفاسه ! لمح سكين قطع الورق على مكتبه فتخلص من قبضة يوسف الحجرية ، وامسك بها ليدسها فى جيبه صارخا كالرعد :

– سأعرف كيف أنتقم منها !

وفى لحظة أصبح طاقة عمياء هادرة ، وانطلق من وسطهم كالسهم النارى عبر قاعة المدخل ليفتح الباب ، ويقفز على درجات السلم الدائرى ، ويلقى بنفسه فى سيارته وسط ذهول البواب الأسمر الذى ألقى برأسه خارج غرفته ليتابع ما يجرى ! انطلق وسط العاصفة الرملية التى ازدادت ضراوة وأصبح حفيفها زئيرا ! وسرعان ما ابتلعت السيارة مع انحرافها الى شارع الهرم !

فى لحظات كان الأب فى سيارته الفارهة والى جواره الأم وفى المقعد الخلفى يوسف ومعالى التى اشرأبت بعنقها فى محاولة لرصد عربة وائل فى شارع الهرم لكنها سرعان ما قبعت فى مقعدها محبطة :

– اختفى وائل تماما !

تضاءل مدى الرؤية مع هياج العاصفة بدواماتها الدائرة فى الشارع الرئيسى والطرقات الجانبية وحكمت تقول لمعالى :

– على كل حال سيارتنا أسرع من سيارته ! سنلحق به باذن الله !

لكن الأب علق وهو يدقق النظر فى الطريق أمامه :

ـ الاسراع فى مثل هذا الطقس خطر محقق !

لم تتوقف كلمات حكمت المرتعشة اللاهثة :

ـ ربنا يستر ! ربما وقع له حادث وهو يقود بجنون فى هذا الطقس المجنون !

حاول يوسف تهدئة السكون المتفجر فى أعقاب لهفة الأم :

ـ لا أحد يعرف أين يكمن الخطر ؟! فلن يكون مثل هـــذا الحادث لو وقع له ·· لا سمح الله ·· بأبشع مما ينوى ارتكابه !

لم يكن وقع كلمات يوسف على حكمت مريحا ، فحاول الأب أن يشحذ ايمان زوجته :

ـ فلتكن ارادة الله !

استدرك يوسف محاولا الابتسام :

ـ المهم ألا يكون عمى قد نسى عنوان هناء !

سارعت الأم الى التعليق اللاهث :

ـ ومن أدراك أنه قصد هناء بتهديده ؟! ربما كانت فتاة أخرى لا نعلم عنها شيئا !! وربما كان يهـــذى بكــــلام لا معنى له على الاطلاق !!

ربتت معالى على كتف خالتها :

ـ اطمئني يا طنط ! فلا أعتقد أن هناك فتاة أخرى فى حياته !

واصل يوسف حديثه الملهوف :

ـ يبدو أن مهمة عمى كانت ناجحة تماما !! وأن هناء طردته شر طردة من حياتها !

لم يبد الاقتناع على وجه حكمت المشدود الشارد ،

ـ لكن ما سر هذه الكدمات والاصابات ؟! لا يعقل أن تكون هى التى اعتدت عليه ؟!

ربتت معالى على كتفها مرة أخرى :

ـ لا تقلقى ! سنعرف كل شىء بعد لحظات !

خرج صوت الأب فى رجاء ملح وكأنه يصلى :

ـ أرجو أن يخرج من هذه المحنة سالما باذن الله !

أمنت معالى على كلماته :

ـ وسيخرج منها أكثر صمودا وصلابة !

لم يترك يوسف فرصة للصمت الرهيب :

ـ ألم تقل لى مرارا يا عمى أن المحن تصنع الرجال عنـدما ينصهرون فى بوتقتها ؟!

استسلمت حكمت لألسنة القلق التى لسعتها بسعيرها :

– هذا اذا كان صلب العود ؟!

لاحقتها معالى بتعليقاتها :

– ومن قال لك انه ليس صلب العـود ! صموده مع هـــذه الشيطانة كل هذه الفترة أكبر دليل على ذلك !

كانت العربة الفارهة تعبر نفق الهرم فى حين لم يبد لعربة وائل أثر وسط جنون العاصفة والسيارات المارقة يمنة ويسرة ! لم يخفف من لفحـات الرمال الناعمة سوى أضـواء العـربات التى تحولت الى أنابيب شفافة تحبس الذرات الدائرة فى فلكها • رفعت حكمت عينيها عبر الزجاج والسيارة تخرج من النفق الى الميدان :

– يا رب !! ليس لى سواه !!

جثم السكون أخيرا بكل وطأته على كاهلهم ، ومعالى تحاول بعينيها اختراق الطريق أمام السيارة واستباق الأحداث ! تاهت الأفكار منهم واستسلموا لقيادة الأب الذى تحول الى عيون ثاقبة وآذان صاغية وكأنه ربان ماهر لسـفينة تمخر عبـاب بحر هائج متلاطم الأمواج حتى بلغ ميدان الروضة لينحرف يسارا ثم يمينا عبر بعض الطرقات الجانبية حتى بدا السور الحجرى للنيل الذى اختفى تماما تحت أردية الرمال المجنونة ! تفحص العمائر على اليسار فلمح معهم سيارة وائل الحمراء قابعة الى جوار الطوار ، وقد ترك زجاج النافذة اليسرى مفتوحا دون أن يكون داخلها ! صـــاحوا فى صوت واحد :

ـ سيارة وائل !!

أكملت معالى صياحها :

ـ صحت كل توقعاتنا !

أوقف الأب السيارة خلفها فانطلقوا منها كالقذائف ! لحق بهم الأب صوب المصعد الذى أشارت لوحته الضوئية الى صعوده حتى توقف عند الطابق الأخير فحدثهم قلبهم بأنه وائل ! ضغطت حكمت بجنون على الزر لكن المصعد لم يستجب ! يبدو أنه ترك بابه مفتوحا ! دق يوسف على الباب بكل طاقته الرياضية التى تعلمها فى الكاراتيه صائحا بصوت جهورى :

ـ اقفل الباب ! اقفل الباب !!

لكن لم يرد عليه سوى أصداء صياحه الذى رددته الطوابق المتعددة حتى بئر السلم المعتم ! صاحت حكمت وهى تنطلق على الدرجات فى خفة ابنة العشرين :

ـ لن أنتظر ثانية واحدة !!

هرع الجميع خلفها لاهثين وهم يتحسسون السور حتى لا يتعثروا ! لم تتردد سوى الأنفاس اللاهثة والقلوب الخافقة ! أوشكت حكمت على التعثر لكن يوسف أمسك بذراعها فى اللحظة نفسها دون أن يتركها بعد ذلك فى حين انطلقت معالى فى خفة الغزال لتسبقهم لعلها تستبق الأحداث ! كاد قلبها أن يقفز من بين

ضلوعها وهى تبلغ الطابق الأخير حيث اطبق الظلام ولم تعرف أى باب تدق عليه ! تحسست الجدران بحثا عن مفتـاح النور عنـدما سمعت صوت وائل يصرخ بكلمات غير مفهومة خلف احد الأبواب ! فشلت فى العثور على المفتاح فظلت تصرخ على غير هدى :

ـ وائل ! وائل ! افتح الباب ! افتح الباب ! افتح الباب ! انا معالى ! أرجوك يا وائل ! ماما وبابا معى !!

لكن ما من مجيب سوى اصداء صراخها على الجدران ، والباب المقابل يفتح وتبدو منه عجوز ذاهلة فى الضوء الذى انبعث من شقتها ليضيء البسطة ! كانت معالى على وشك الاستنجاد بها لولا وصولهم لاهثين والأب يشير الى أحد الأبواب من خلال انفاسه المتقطعة :

ـ هذه هى شقتها !

دق يوسف جرسها الموسيقى وصوت وائل ينبعث من داخلها فى صرخات ذبيحة غير مفهومة باستثناء :

ـ سأعرف كيف اخلص الدنيا من شرورك !!

دق يوسف ومعه حكمت وابراهيم بقبضات حديدية وحجرية على الباب الخشبى لكن احدا لم يفتح ، وصرخات وائل تحولت الى نشيج مبحوح ، فأسرعت العجوز الى غلق بابها فسـاد الظـلام باستثناء نور المصـعد المفتـوح الخـافت ! أزاح يوسف ابراهيم وحكمت فى بعض العنف واستدار ليرفس الباب بباطن حـذائه

كما اعتاد فى تدريبات الكاراتيه ! لم يفتح الباب فكرر المحـاولة فى عنف متصاعد ولم تنجح الا فى المرة الثـالثة عندما كسر لســـان القفل لكن حكمت كانت أسرع منه كالسهم داخله لترى ابنها واقفا شاهرا سكين الورق فى وجه هناء القابعة فى ركن على احدى الحشايا وهى تنظر الى وائل فى ابتسامة بلهاء شاردة وكأن الأمر كله لا يعنيها فى كثير أو قليل ! شعر وائل بمن يحـاول أن يمسـك بذراعه من الخلف • استدار فلمح أمه فصرخ فى يوسف الذى حاول أن يشل حركته :

ــ لن يمنعنى أحد من قتلها !!

ثم استدار بمنتهى العنف ليهجم بذراع حديدية على هنـاء لكن أمه فى لحظة كالبرق كانت سدا منيعا بينهما فاذا بالسكين وقد غرزت فى كتفها ونافورة دماء تتدفق على ردائها الصوفى الأبيض فتغمره بحمرة قانية ساخنة صعق وائل لها فجذب السكين وألقى بها ليحتضن أمه صائحا كطفل غرير ! وهناء تتابع المشهد بابتسامة بلهاء شاردة وكأنها لا تعى ما يدور أمامها ! خلع يوسف سترته ومزق قميصه الى ضمادات ربط بها كتف الأم المستسلمة لأحضان ابنها وأذرع زوجها ومعالى ! صاح يوسف فى وائل كى يكف عن البكاء والعويل والنشيج فما كان منه سوى أن انحنى على السكين الملطخة بدماء أمه كى يطعن بها نفسه صارخا :

ــ كنت سأقتل ماما !! أحب الناس لقلبى !!

لكن يوسف كان أسرع منه فركل يده فطارت السكين بعيدا وعاجله بضربتين من ضربات الكاراتيه فى الكتف والصدر صائحا :

ـ ليس لدينا وقت لمصائب جديدة !

أمسكت معالى بوائل قبل أن يسـقط واحتضـنته فبكى بين ذراعيها ! قاد يوسف خالته التى أمسك بهـا زوجهـا من الجانب الآخر وساروا جميعا بخطوات منهكة ! قال يوسف فى حزم :

ـ سنذهب فـورا الى المستشفى ! فلابد من تطهيـر وغرز للجرح !! ولابد من بدء العلاج الحاسم لوائل !!

قالت الأم بصوت واهن :

ـ الحمد لله !! الحمد لله !!

خرجوا جميعا من الشقة ونظرات هنـاء الشاردة تستفسر عن حقيقة ما جرى فى حين كانت العجوز فى الشقة المقـابلة تتـابع الموقف خلف الباب الموارب بحيث يساعدها على أن ترى ولا ترى فى الوقت نفسه بعد أن أطفأت كل أنوار شقتها !

هبط بهم المصعد ووائل لم يتوقف عن النشيج الشارد بين ذراعى معالى :

ـ كان من الممكن أن أصبح قاتلا كما وجدت نفسى دون أن أدرى وأنا أسرق ٠

نهره أبوه فى حنان حاسم فلم يمنحه فرصة الاعتراف بالسرقة ايضا :

ـ انه درس لك ولنا جميعا !! الحمد لله على ما حدث !! فالعواقب سليمة برغم كل ما جرى ! المستقبل هو قضيتنا الآن !

خرجوا الى حيث السيارة الفارهة فأجلس يوسف حكمت فى المقعد الخلفى وهو يشكر للعاصفة تغطيتهم بارديتها الثقيلة بعيدا عن العيون المتلصصة ٠ قبعت حكمت بين يوسف ووائل فى حين أسرعت معالى الى اغـلاق سيارة وائل المهجـورة والركوب الى جوار ابراهيم الذى انطلق بالسيارة عابرا كوبرى الملك الصـالح ثم انعطف يمينا ينهب الأرض نهبا بحذاء النيل وحكمت تحاول كبت آهاتها بقدر الامكان !

كان الطريق الواسع العريض قد خلا من المارة ، وتضاءل عدد السيارات المارقة عليه ، فى حين تجعدت صفحة النيل بأمواج دقيقة بنية ودوامات فائرة رمادية تحت وطأة صفعات العـاصفة التى يبدو أنها شرعت فى الاستكانة بعض الشىء ! فلم تعد أوراق الأشجار العتيقة على ضفاف النهر الجليل تتطاير يمنة ويسرة وان كانت فروعها لا تزال تتمايل فى عنف واضح بلا اتجاه محدد !

فجأة تناثرت قطرات خجلى من المـاء على الزجاج الأمامى للسيارة المنطلقة فى سكون لم يقطعه سوى أزيز المحرك المنتظم ، وحفيف الاطارات الرتيب ، والدقات الرقيقة لماسحتى المطر اللتين

ضغط الأب على مفتاحهما وهو يقـول فى محـاولة لتخفيف صمت الجالسين وألم زوجته التى أصابها الوهن أيضا ويوسف يمسك بكتفها :

– لن يخلصنا من عناء الأتربة والرمال سوى مطر ثقيل !

انفتحت شهية معالى للكلام :

– انه كفيل بغسل الدنيـا وتنقيتها من كل ما علق بهـا من شوائب !

استدارت لتنظر الى خالتها التى بادلتها ابتسامة واهنة فى حين قال وائل بنبرات جريحة :

– لكنه يغطى الشوارع والطرقات بالأوحال !

علق يوسف وهو يحتضن خالته فى حنان دافق :

– الأوحال تحت الأحذية والأقدام أفضل من الاتربة والرمال فى العيون والأنوف والحلوق ·· فهى تصيبها بالحمرة والالتهابات !

صمت وائل دون الشعور بحرج أو بخجل ! فقد اكتشف لأول مرة أن حبه لأمه وخوفه عليها قد قهرا النار السارية فى عروقه طلبا للمخدر ! ان كل همه الآن أن يراها سليمة معافاة ! فهو على استعداد أن يفديها بحياته ! دون تفكير انحنى ليقبل كتفها فمدت يدها برغم ألمها وربتت على وجنته !

سأل ابراهيم يوسف والمطر يتصارع مع العاصفة :

ـ بماذا ستبرر لهم الجرح فى المستشفى ؟!

ـ لا تحمل هما يا عمى ! كلهم هناك زملاء وأصدقاء وسيضعون طنط ووائل فى عيونهم !

انداحت العاصفة تحت وابل المطر المنهمر على السيارة من كل جانب ، ولولا ضربات الماسحتين لاختفت المرئيات تماما وتحولت السيارة الى غواصة فى أعماق بحار مجهولة ! انفتح الطريق أمام أعينهم بعد أن تخلصت المياه المتلاطمة من بقايا الأتربة والرمال العالقة بها ! بدا الأفق وكأنه يستحم فى قطرات من البلور استقبلت النيل والشجر بالأحضان والقبلات !

أضاف يوسف بصوت أشاع الطمأنينة بينهم ، والدفء فى أوصال حكمت برغم البرودة التى أمسكت بتلابيبها :

ـ لن تمكث طنط فى المستشفى أكثر من يوم أو يومين !! أما علاج وائل فقد يصل الى شهر !

تساءل وائل فى حرج كسير :

ـ وماذا عن الامتحان ؟! لم يتبق عليه سوى شهر .. ولم أستعد له !!

علق الأب وهو يركز عينيه على الأرض التى ينهبها :

ـ ضياع سنة من عمرك خير من ضياع عمرك كله !

تدفق الحماس من نبرات معـالى وهى تسـتدير لتنظر الى وائل :

– ومن قال ان السنة ستضيع منه ؟! سألازمه فى المستشفى للاستذكار !

ربت وائل على ذراعها الممدودة على ظهر المقعد :

– وما ذنبك أنت حتى أتسبب فى اعاقتك ؟!

– لن أضيع وقتى هباء معك ! وبدلا من أن اذاكـــر بمفردى سأتخذ منك مستمعا مصغيا على الأقل !

– أحيانا تنتـابنى نوبات تفقدنى القـدرة على التركيـــز والاستيعاب !

طمأنه يوسف بصوت دافىء :

– مع العلاج ستقل هـذه النوبات الى أن تنحسر تمـاما ! وسأحاول من ناحيتى أن أقدم عذرا معتمدا من المستشفى عن غيابك عن الـكلية !

خرج صوت حكمت واهنا :

– سأرافقك بالمستشفى الى أن تخرج منها سليما معافى !

أطلق يوسف ضحكة مجلجلة :

ـ يبـــدو أن العـــائلة الكريمة كلهـا ستنتقل معى الى المستشفى !! لم يتبق سوى عمى وماما التى سأذهب اليهـــا فى الصباح لاحضارها !! واضح أن ثقتكم بى مهزوزة للغاية بدليل أن وجودى معه لا يكفيكم !

نظرت اليه حكمت نظرة متدفقة حنانا وحبا :

ـ حفظك الله لنا يا يوسف ! فلولاك ما كنا لنستطيع أن نفعل شيئا فى محنة كهذه !

ـ لا احب أن أسمع مثل هذه الكلمـات !! فأنتم الخيـــر والبركة !

تألقت مصـــابيح الشـــارع الصفراء وانعكس وميضها على الأرض المبتلة ! تباعدت السحب لتكشف عن ثغر افتر عن أشـعة فضية خجلى متسللة من بين ثناياها ! بدت القبة الزرقاء الداكنة مرصعة بنجوم وكواكب بعيدة تتراوح بين الوميض والاختفاء !. والسحب لا تزال فى موكبها بين الانفصال والالتقاء ! وقد تراجع وابل المطر الذى أصبح رذاذا خفيفـا يداعب نوافذ السيارة فى رقة لا تخلو من شقاوة !

بدت مشارف حلوان فأشار يوسف بيده لابراهيم موضـــحا الطريق الذى سيسلكه الى المستشفى ! كانت الطرقات قد خلت من المارة والسيارات ، ولم يسمع سوى نباح بعض الكلاب البعيدة !

لمعت أوراق الأشجار وفروعها تحت المصابيح الصفراء ! انبعثت رائحة العشب الندى فى الأنوف برغم نوافذ السيارة المغلقة !

وعندما شرعت السيارة فى صعود الربوة التى يقع على قمتها المستشفى الذى سطعت أنواره عند أطراف الحى الهادىء كان القمر قد تخلص من حصار السحب ، وألقى بأسمال العاصفة التى تلاشت بأرديتها الترابية والمائية ، ليغرق الربوة فى أشعته الفضية الحانية الصافية الشفافة ٠

تمت

رقم الايداع ٣١٠٢/١٩٨٧
الترقيم الدولى ٤ ـ ١٦٧ ـ ١٧٢ ـ ٩٧٧

دار غريب للطبــاعة

١٢ شارع نوبار (لاظوغلى) القاهرة

ص ٠ ب (٥٨) الدواوين تليفون ٣٥٤٢٠٧٩